احتفالية للموت

قصص كوردية مترجمة للقاص

أنور محمد طاهر

احتفالية للموت

احتفالية للموت ، قصص كوردية مترجمة للقاص أنور محمد طاهر

تقديم ومراجعة : أنور محمد طاهر

الاخـراج الفني والغلاف: رهيل عادل ميكائيل

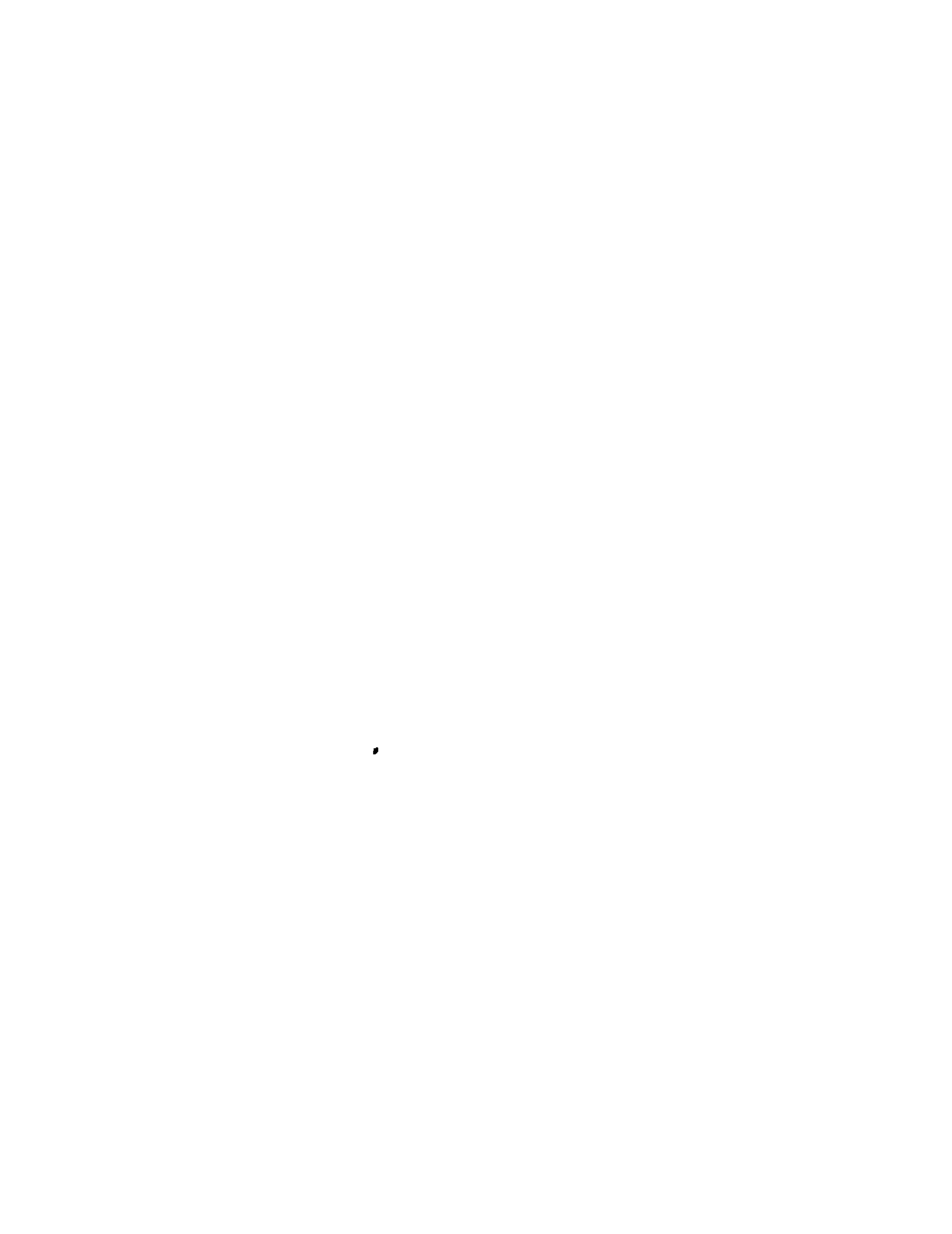
عدد : ٥٠٠

رقم الايداع : ٢١ / ٢٤١٧ / - D

مطبعة: مطبعة گازى

احتفالية للموت

قصص كوردية مترجمة للقاص أنور محمد طاهر



المحتويات



تقديم

بعد نفاذ مجموعتي القصصية المترجمة للغة العربية بعنوان (مقهى العميان)، وقيام الدكتور ماجد الحيدر بترجمة اربع قصص اخرى لي، وترجمتي لقصتي الطويلة (المعلم)، ولما استقبل المجموعة بعد صدورها من اهتمام من قبل العديد من النقاد من الاخوة العرب وما كتب عنها، أرتأيت اعادة طبع المجموعة مع أضافة القصص الخمس الجديدة ونشرها تحت عنوان (احتفالية للموت). املي ان تكون نافذة لقراء الضاد للاطلاع على الادب الكردي والقصة الكردية بالذات، واتمنى ان قد قدمت خدمة تستحق القراءة والاطلاع .

والله الموفق

انور محمد طاهر



مقدمة

بقلم عبدالكريم يحيى الزيباري

استمتعتُ بقراءة المجموعة القصصية للقاص أنور محمَّد طاهر، والتي سوف تدشِّنُ أول إصدارٍ له باللغة العربية، حتى أنني عندما تكرَّم وَطَلَبَ مني أنْ أكتبَ مقدمةً لهـذه المجموعـة، سرَّني أنْ تُتـاح لي هذه الفرصة كي أقدِّم له هذه الخدمة الصغيرة والتـي أراهـا غـير ضرورية فعلاً، لأنَّ النصـوص هـي التـي تقـدِّم نفسـها، ولا أريـدُ أنْ أقوم بأدنى تأثير على مسار القارئ، ولكنني أريد التنويه بلغة القاص التي تخلطُ بين الأسطوري والشعبي بلغة ساخرة ومتهكِّمة بمجتمـع التناقضات، فاضحاً النواقص التي تعتري النفس البشرية وتعوقه عن حبِّهِ للإنسانية جمعـاء، وتعبـيره عـن الطبقـات المسـحوقة، وطبقـة الاستغلاليين البشعة الذين وصفهم بالعميان.

استطاعَ القاص في قصته الموسومة "مقهى العميان" أنْ يقدِّم لنـا أسطورة كردية، تخطَّت الحدود الزمنيـة، واجتـازت الإطـار القـومي والإقليمي الضيِّق، ومن خلال تقنية تعدُّد الأصوات: تنـاول إشـكالية الهوية الكوردية وتهميش الـذات الكورديـة، والتأكيـد عـلى الأصـول اللغوية والأبوية والدينيـة للهويـة الكرديـة الأصـيلة، التـي لا زالـتْ تُعـاني صراعـاً بـين الـذات الانفعاليـة العاطفيـة والـذات العقلانيـة

المنطقية، وقد أصابتها تصدُّعات عديدة لامسها القاص طاهر بريشة الفنان في معظم نصوصه، هذه الهوية التي تمزقّت بفعل الصراعات الخارجية، والصراعات الداخلية، والتي استفاقتْ فجأةً لتجد نفسها مرغمة على التكيُّف مع الحياة العصرية والانفتاح على العالم الخارجي، وقبول الآخر المختلف، في محاولةٍ ربما جاءت متأخِّرة نتيجة الظروف السياسية القاهرة، لمواكبة التغييرات الحضارية والمعرفية والتي تستوجب فكراً علمياً يمتح من الرصانة والعقلانية. والكثير من الإحالات التي جاءت عفوية ودونما أدنى تكلف، كإشارة إلى العمق الثقافي لرجلٍ يعشق القراءة، ويعمل أميناً للمكتبة العامة في مدينة دهوك منذ عام ١٩٩٩. ففي قصة "مشروع استشهاد" أشار إلى الساموراي وحملة زينفون، وفي "لصوص الليل" أشار إلى جمهورية أفلاطون(لا نحن لا نريد أنْ يكون هناك عقاب، ولا أن تدفعوا أحداً إلى الجريمة. ضحك في وجهه. ما تقوله كان عصارة فكر وآراء أفلاطون الذي وضع أسس الجمهورية). وإلى(آراء وأفكار الفلاسفة والعلماء الذين يقولون: واجه الرِّيح العاصفة وحدك، ومثلما يقول المسيح، كفاكم تمسكاً بأهدابنا مثل الأطفال، ابدءوا المشوار، سيروا وحدكم)ومن ثمَّ فالعنوان يشير إلى رجال الأمن العاملين لدى السلطات الدكتاتورية الذين يقمعون الناس، لكنَّ البطل يبرِّرُ أعمالهم(لماذا يأتي في هذا الصباح الباكر؟ أ ليس له أطفال؟ أ لم يترك أولاده نائمين؟ ربما كان يودّ أنْ يتناول فطوره الصباحي مع أولاده ثم يأتي بعد ذلك.. ليس الأمر في يده، فهو

مجبر). والإنسان ليس مُجبراً على أنْ يقتات من إيذاء الناس!! ويكاد الانتظار أنْ يكون ثيمةً رئيسة في قصص طاهر، فالأم تنتظر ابنها دلير، والمدينة تنتظر أخبار مقهى العميان، والبطل ينتظر لصوص الليل رجال الشرطة والأمن كي يأخذوه إلى السجن ويريحوه من عذاب الانتظار، وفي "مشروع استشهاد" ينتظر الموت ويُفكِّرُ في الصورة التي سيموت عليها، وتطغى فكرة الاستشهاد، ولكنَّ انقلاباً يحدث، وفي اللحظة التي يصير فيها أمام الموت مباشرةً (كان يبحث عن الشهادة والآن يتمنى النجاة). في قصص طاهر حوارات وكلمات مُغرقة في شعبيتها المحلية الواقعية، وشخصيات تبدو حقيقية وأسطورية في آن واحدٍ معاً، كوَّنت الميزة الأساسية التي ازدانت بها النصوص، ألا وهي قدرتها الدائمة على الدهشة، وكنتُ قد كتبتُ دراستين حول قصة "مقهى العميان" وكانت الأخيرة بعنوان (دلالة العنوان الأسطوري في مقهى العميان) والتي أدرجها أدناه:

وهي تتناول هذه الأسطورة في نصٍّ لتوفيق الحكيم بعنوان "نهر الجنون" والثاني للروائي الإنكليزي هربرت جورج ويلز(١٨٦٦-١٩٤٦) بعنوان " بلاد العميان":

دلالة العنوان الأسطوري في مقهى العميان

يلجأ الكاتب إلى عنوان أسطوري ليحقِّق إحالة القارئ إلى الميثولوجيا بغرض إثراء النص، وقد لجأ الإنسان إلى الأسطورة لإجراء توازن هش بين قِوى الخير والشر. وإذا كان الناس لا يخافون إلاّ

المجانين والأشرار، فجميع حكام العالم مجانين وأشرار، وكان الفقه القانوني ولا زال يتساءل هل يجوز للأعمى أنْ يلي القضاء أو أيَّة مناصب أخرى؟ في قصة "مقهى العميان" لا يكاد القارئ يُمَيِّزُ بين الواقع والأسطورة، وتوحي للقارئ بأننا كلنا عميان، كالهدهد إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء وهو لا يبصر شعيرة الفخ. فقيل في ذلك: إذا جاء القدر عَمِيَ البصر، ولا ينبغي للحاكم أو السلطان أنْ يَظْلِمَ وبه يُدْفَعُ الظُّلْمْ ولا يَبْخَلْ ومنه يُنتظَرُ الكرمُ والجود، وإنْ فعلَ فهو أعمى أو كما قال المبرِّدْ في كتابه المقتضب/ص٢٤٥(قوله تعالى"ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ". يكون من عمى القلب، وإليه ينسب أكثر الضلال، لأنه حقيقته كما قال تعالى(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)الحج:٤٦. فعلى هذا تقول: ما أعماه، كما تقول: ما أحمقه). يقول ميشيل فوكو(كان الجميع يطالب الجمعية الوطنية بإصدار نصوص تحمي الناس من المجانين)[١] لكن مَنْ سيحمي المجانين من الناس؟ وكلَّ يوم يطالب الحاكم وأعضاء حكومته بحمايتهم من الناس، لكن مَنْ سيحمي الناس منكم؟ ماذا يعني أنْ تخرجَ قصة قصيرة جديدة إلى العالم؟

ماذا يعني أن تخرج أسطورة جديدة في شكل قصة قصيرة كأساطير بورخس؟

---

[١] ميشيل فوكو- تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي- ترجمة سعيد بنكراد- المركز الثقافي العربي- ٢٠٠٦- بيروت- ص٤٣٢.

مقهى العميان: أسطورة كردية من حدثٍ بسيط، نصٌّ كآلاف النصوص، لكنَّ هذا النص يستمد وجوده ويستمر في كلِّ قراءةٍ جديدة، كلُّ دالٍ أو علامة سيميائية في "مقهى العميان" يمثِّل أكثر من علامة مرحلية، كالعملة الذهبية قابلة للتعامل على مرِّ العصور، بينما لكلِّ عصرٍ عملته الخاصة التي تنتهي بنهايته، وتختفي صورة الزعيم أمام زعيمٍ آخر، كلُّ هذا بسبب قلق القاص الذي انعكسَ في لغةٍ قلقة، غير متيَقِّنة، جزئية، تستحق"مقهى العميان" أنْ يناقشها مؤرِّخو الأفكار، لأنَّها تُسْهِمُ ببساطة وخِفَّة تكاد تكون غير ملحوظة في تغيير رؤية القارئ إلى عالمه الذي يعيشه، وتغيير علاقته مع ذاته ومع السلطة. قرأتُ هذه القصة القصيرة في زمنٍ كنتُ فيه تحت تأثير تعدّد الأصوات والأسلوب الصحّافي في(قصة موت معلن/ ماركيز)وأجهد قريحتي لإيجاد الفروق بين السارد وهو الروائي، وبين الراوي وهو أحد الأدوات التي يوَظِّفُها السارد كصوتٍ منفرد في جوقة أصوات الرواية، وحين ذهبت إلى مهرجان القصة القصيرة في السليمانية، واشتكى الشاعر لطيف هلمت مِنْ تجاهل العرب للأدب الكردي، مقابل اهتمام كردي شديد بجميع إصدارات الأدب العربي قديمها وجديدها، قُلْتُ لَهُ في مداخلتي(أعطني نَصّاً مدهشاً وسأضمنُ لك ترجمته إلى لغات العالم- وامتدحتُ قصة أنور محمد طاهر " مقهى العميان" وكيف أنني حين قرأتها قرّرت ترجمتها في أوّلِ محاولةٍ لي، رغم الصعوبات الكثيرة، وهكذا كلُّ النصوص الشهيرة، أثارت دهشة وإعجاب قارئٍ ما، فقرّرَ ترجمتها، أو ظلَّ

تحت تأثيرها، حتى يُسَخَّرَ لها مترجماً شجاعاً يجـرؤ عـلى ترجمتهـا)
وحين عدت إلى مكاني، تلقَّفها مني الجمهور تلك الكرة التي ألقيتهـا
بقوة في المياه الراكدة، وطلبـوا منـي نـصَّ القصـة القصـيرة، وقرأهـا
الناقـد عـلي حسـين الفـواز وأبـدى إعجابـه الشـديد، وكـذلك فَعَـلَ
الجميع، وربَّما كُنَّا جميعاً تحت تأثير القرارات المُسبقة التي تُتَّخذُ في
عقلنا الباطن!!. وكتبتُ عن هذه القصة دراسـة طويلـة، وبعـد عـامٍ
وَنَيْـفْ، وقـراءات متعـدِّدة، عـدتُ إليهـا أتقصى- قـراءةً مغـايرة،
واكتشفتُ فيها محاولة لإعادة بناء الأسـاطير الكرديـة، حيـثُ يقـوم
القاص أنور محمد طاهر، الذي يُدهشنا بسرده ومخيلتـه الواسـعة،
منذ تشظيّات العنوان إلى غرائبية وطرافة المفارقات وشـعبية اللغـة
المتداولة، في عوالم الأدب المقارن: منذ بلاد النساء الأمازونيات، وبلاد
الأقزام، وبلاد العميان، وبلاد المجانين كما في "مسرحية نهر الجنـون"
لتوفيق الحكيم، وفكرتها أنَّ ملكاً رأى في منامـه(في لـون الفجـر ثـم
أبصرت أفاعي سوداء قد هبطت فجأة من السماء و في أنيابهـا سـمٌّ
تسكبه في النهر فإذا هو في لون الليل. و هتف بي من يقـول "حـذار
أن تشربـب بعـد الآن مـن نهـر الجنـون" وقـد رأيـت النـاس كلهـم
يشربون..

الوزير – إلاّ إثنان.. الملك – أنا و أنت.. الوزير – أجل يامولاي.
آخـر ملجـأ لنـا و خـير ملجـأ: السـماء. (يخرجـان مـن أحـد
الأبواب)(تدخل من باب آخر الملكة و رأس الأطباء و كبـير الكُهّـان)
الملكة – إنه لخطب فادح!. كبير الكُهّان : أجل إنها لطامّة كبرى!

الملكة – (لرأس الأطباء) أما من حيلة للطب في ردّ نور العقل إلى هذين البائسين!

رأس الأطباء – يشق على هذا العجز مني أيتها الملكة.

الملكة – تفكّر يا رأس الأطباء.

رأس الأطباء: لقد تفكرت ملياً يا مولاتي ، إن ما أصابهما لا يسعه علمي.

الملكة – أأقنط إذن من شفاء زوجي. رأس الأطباء – لا تقنطي يا مولاتي. هنالك معجزات تهبط أحياناً من السماء هي فوق طب الأطباء. الملكة – ومتى تهبط تلك المعجزات؟

رأس الأطباء: من يدري يا مولاتي! الملكة – يا كبير الكهان استنزل لي واحدة منها الآن .. الآن .. الآن.. كبير الكهان – من قال يا مولاتي إني استطيع أن استنزل شيئاً من السماء.

الملكة – أليس هذا من عملك؟ كبير الكهان – إن السماء يا مولاتي ليست كالنخيل يستطيع الإنسان أن يستنزل منها ما شاء من ثمار! الوزير – الناس، المجانين، إنهم يرموننا بالجنون. ويتهامسون علينا ويتآمرون بنا، أتسمع مني نصحاً يا مولاي؟ الملك – أعرف ما تريد أن تقول. الوزير – نعم ، هلمّ نصنع مثلهم و نشرب من ماء النهر. الملك – (ينظر إلى الوزير ملياً) أيها المسكين! إنك قد شربت! أرى شعاعاً من الجنون يلمع في عينيك. الوزير – كلا لم أفعل بعد.

الملـك – أصـدقني القـول. الـوزير – (في قـوة) أصـدقك القـول، إني سأشرب وقد أزمعت أن أصير مجنونـاً مثـل بقيـة النـاس. إني أضـيق ذرعاً بهذا العقل بينهم. ما قيمة نـور العقـل في وسـط مملكـة مـن المجانين! ثق أنّا لو أصررنا على ما نحن فيه لا نأمن أن يثبـت علينـا هؤلاء القوم. إني لأرى في عيونهم فتنة تضطرم، وأرى أنهم لن يلبثوا حتى يصيحوا في الطرقات: الملك ووزيره قد جُنّا، فلنخلع المجنـونين! الملك – و لكنـا لسـنا بمجنـونين! الـوزير – كيـف نعلـم؟! الملـك – ويحك! أتقول جداً؟ الوزير – إنك قد قلتهـا السـاعة يـا مـولاي! أن المجنون لا يشعر أنه مجنون. هم أيضاً يزعمون هـذا الـزعم. الملـك – وأنت، ألا تعتقد في صحة عقلي؟

الوزير – عقيدتي فيـك وحـدها مـا نفعهـا؟ إن شـهادة مجنـون لمجنون لا تُغني شيئاً. الملك – (في تفكير) نعم إن في هذا كلَّ الخـير لي. إن الجنون يعطيني رغد العيش مـع الملكـة والنـاس كـما تقـول. وأما العقل فماذا يعطيني! الوزير – لاشيء. إنه يجعلك منبوذاً مـن الجميع، مجنوناً في نظر الجميـع! الملـك – إذن فمـن الجنـون أن لا أختار الجنون).

حـاولَ بعـض مثقفـي الإنكليـز أن يبرهنـوا بسرـد الأسـاطير: أنَّ المعرفة مستويات مختلفة بين البشر، وليس من المعرفة ولا الأخلاق استغلال الآخرين بدعوى أنَّهم أقلُّ عِلْمَاً ومعرفة(ذَٰلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَـبِيلٌ). وبالتـالي سيادة رؤيـة الآخـر بوصـفه

ناقصاً بالفطرة، لا لسببٍ معقول إلاّ لأنه غريب(وليس هناك بشرٌ- أسوأ من الذين يتبجّحون دائماً بهويّتهم- أو بقوتهم أو بعلمهم-، فهؤلاء المتعصّبون لا يعتقدون أنّهم على صواب، فحسب، بل هم مستعدون دائماً لحفر قبر تحت أقدام مَنْ لا يصدِّقُهم، ومَنْ يُنبِّهُهم إلى أخطائهم)[1].

الروائي الإنكليزي هربرت جورج ويلز(١٨٦٦- ١٩٤٦) كَتبَ قصة بعنوان " بلاد العميان" متسلِّق جبال إنكليزي يُدعى "نانز" مغامر، بحثاً عن دليله السويسري الذي سقطَ في انزلاق ثلجي، يجتازُ أماكن غريبة، وأهوالاً وبحيرات ماؤها يغلي، والسمك يحتضر على السطح، ووادي الجبل الغامض، حتى يصل إلى قريةٍ رزقها الله من كلِّ طيِّبات الأرض، أنهارٌ عذبة، غابات عظيمة من الصنوبر تحميها من الانهيارات الجليدية، أشجارٌ لأنواع الفاكهة كافة، أغنام وأبقارٌ وجمال، وطقسٌ معتدل، وأمانٌ ورفاهية، أزهارٌ جميلة، ولا وحوش ولا حشرات شريرة، بيوتها تنقسمُ على جانبي شارع مركزي مدهش النظافة، يجتازهُ رجال ونساء القرية وهم يلوون رؤوسهم، فعلمَ أنَّ هذه قرية العميان التي أخبرت عنها الأساطير، يرى جفونهم مغلقة وآذانهم تتجه نحوه بخوف، وتواردت إلى ذهنه الأمثال الشعبية المتعالقة مع هذه الأسطورة (الأعور في بلادِ العميان ملك)، يمسكون به، يتحسّسون ذقنه الحليق، ويده الناعمة، ("دعنا نَقُودُه إلى

---

[1] رفائيل أرغولول- صياد اللحظات- ترجمة رفعت عطفة- دار بدايات- ٢٠٠٥- دمشق- ص٨٩.

الشيوخِ، "قالَ بيدرو، وأخذوا نانز يقودونه من يده، إلى الشيوخ لِيَبُتّوا في أمره، سَحبَ يَدَهُ نانز، بإمكاني أنْ أرى" قالَ لهم، "أحاسيسه ما زالَتْ ناقصة، "قالَ الرجلَ الفاقد البصرَ ـ الثالث). استنطقوه مطوَّلاً، ثم جلبوا له طعاماً، بيدرو ابن أخ يعقوب، وساروت هي البنت الصغرى ليعقوب(جَلسَ عند قدميها وأخبرَها أنَّهُ يُحبّها) وأخت ساروت الكبرى أخبرت أباها يعقوب بأنَّ ساروت ونانز عاشقان، ظهرت معارضة شديدة جداً، إِخْوَتُها رأوا بأنَّ هذا الزواج يجلب لهم عاراً، ساروت بكت على كتف أبيها، وقالت أنَّها تحبه وهو يحبها، وشعر يعقوب بحزنٍ شديد، قال يعقوب لمجلس الشيوخ(يوماً ما سيصير عاقلاً مثلنا، لكنهم رفضوا، وقال العراف وكان طبيباً ماهراً ولديه اختراعات كثيرة، ("دماغه عليل" "قالَ الطبيبُ الأعمى، غمغمَ الشيوخُ موافقين، "الآن، ماذا يُؤثّرُ عليه؟" "قالَ الطبيبُ، "تلك الأجزاء الشاذَّةُ التي تَدْعو العيونَ، والتي تَجعل وجهه كئيباً ومريضاً، تؤثّرُ بطريقةٍ غامضة على دماغه، وعِنْيَدَهُ الرموش، وجفونه تَتحرَّك، ولذلك دماغه في حالة مرض دائمة يعاني الشرود وعدم الانتباه." "نعم؟ "قالَ يعقوب "نعم؟ " "وأعتقد لكي يُشفى مِنْ الضروري أَنْ نَعمَلَ عملية جراحية بسيطة وسهلة يعني، لإزالة هذه الأجزاء والأجسامِ المثيرة." وبعد ذلك سَيَكُونُ عاقلاً مثلنا؟ " "سَيَكُونُ عاقلاً جداً، ومواطناً جديراً بالإعجاب جداً." وذَهبَ يعقوب حالاً لإخبار نانز بآمالِه السعيدةِ. لكن نانز استلمَ هذه الأخبارِ الجيدة ببرود مخيّب للآمال. "هناك الأشياء الجميلة،

الأشياء الصَغيرة الجميلة، الزهـور، النباتـات وسـط الصـخور، الضـوء ونعومة قطعة الفراء، السماء البعيدة بفجرٍ". يقول أورهـان بـاموك (في داخـل هـذه الأعـمال المدهشـة يُـدفن جوهرنـا الـذي يجعلنـا نحن)[1].

قصة مقهى العميـان تمارسُ وظيفـةً جديـدة للسرد، لا وصـف الواقـع بـل لتغيـيره، برفضـها الـنمط السـائد، بتوظيـف الأنمـاط المتعارضة مع الأشكال التقليدية للقص في تمرُّدٍ يروم تأسـيس جـنس حكائي جديد في الأدب الكردي يكون من الصعب فيه فصل الجانب الحكائي عن الواقعي عن الأسطوري، مثيراً بـذلك الدهشـة والفجـأة. تمركزت بُنْية القصة حول المقهى الذي يحكم المدينة، وتنتهي القصة حيثما بدأت، مـن السـماء إلى السـماء، كمسرحية توفيـق الحكـيم، فحين عَجَزَ الملك بدأ يفكِّر في المعجزات، وكذلك الملكـة اتجَّهَـت إلى السـماء، وطالبـت رئـيس الكهَّـان أنْ يقـوم بوظيفتـه، وكـذلك روّاد المقهى المقابل لمقهى العميان، اتجهوا إلى السماء(وقال آخـر: يـا ربِّ زلزلِ المقهى تحت أقدامهم، واجعل عاليَهُم سافِلَهُم، وامـحُ آثـارهـم في الأولين والآخرين.

- كلهم ردّدوا: آمين...آمين...آمين..

---

[1] أورهان باموك- الكتاب الأسود- ترجمة عبدالقادر عبدالله-ط١ -٢٠٠٣-دار المدى- دمشق- ص٨٨.

- قال أحدهم وكان يجلسُ في نهاية الديوان، وهو يهزُّ رأسه ضاحكاً، ويمطُّ شفتيه:

نعم لقد أفنيتموهم!!! هيهات!!! هيهات!!!).

القاص الكردي يؤسِّس لفكرة المقهى الكوني العالمي الذي وهو يقود العالم أصيبَ بنوبة عمى مفاجئ.. هل نحن اليوم نعيش مع عالمٍ من الجنون؟ وإذا كان أحدنا يعتقدُ نفسه العاقل الوحيد، أفليس في اعتقادهِ شيءٌ من الجنون؟ الجنون هو أنْ تبقى عاقلاً في دنيا المجانين، أنْ تبقى مُبصراً في بلاد العميان، أن تبقى مُبصراً بمحاذاة مقهى العميان. كما في بلاد العميان(هكذا أصبحَ نانز مواطناً في بلادِ العميان، وأَلِفَها، والعالم ما بعد الجبالِ أصبحَ أكثر فأكثر بعيداً وغير واقعي). وقبل تاريخ الجنون لميشيل فوكو، كان هناك كتاب جميل للنيسابوري هو عقلاء المجانين الذي يتحدث فيه عن قضية محورية هي أن العقل والجنون ثنائية متداخلة تكاد تكون موجودة في كل ذات.. وأن المجتمع قد يتمسك بالمنطق الشكلي لتغطية نقاط الضعف التي لا يريد تعريتها بينما المجنون هو الذي يكشف للمجتمع نقاط الضعف هذه ويواجه بالرأي الآخر.. لذلك كان جمع أخبار ونوادر وأشعار عقلاء المجانين محطَّ اهتمام الأدباء والمفكرين منذ القدم، وصولاً إلى البحث في تاريخهم بأسلوب فلسفي معاصر، وذَكَرَ قول أبي يزيد البسطامي(جننتني بي فمت، ثم جننتني به فعشت، ثم جننتني عني فغبت، ثم أوقفني في رجَّةِ الجنون، وسألني عن أحوالي الثلاث، فقلتُ: الجنون بي فناء

والجنون بك بقاء والجنون عني وعنك ضناء وأنت في كل الأحوال أولى بنا)[1].

- وفي نهاية قصة "مقهى العميان، حين يتملكهم اليأس يلجئون إلى السماء: (وقال آخر: يا ربِّ زلزلِ المقهى تحت أقدامهم، واجعل عاليَهُم سافِلَهُم، وامحُ آثارهم في الأولين والآخرين.
- كلهم رددوا: آمين...آمين...آمين..
- قال أحدهم وكان يجلسُ في نهاية الديوان، وهو يهزُّ رأسه ضاحكاً، ويمطُّ شفتيه: نعم لقد أفنيتموهم!!! هيهات!!! هيهات!!!).
- وهذا اللجوء يأتي من القناعة وطيبة القلب، لأنَّ الإنسان البدائي الحقود والذي لا زال منه الكثير يعيش بيننا، لا زال يفعل كذلك، حيث يكتفي بالشتائم واللعنات (يأتي بأعدائه عبر الكلمات، ويقضي عليهم بالكلمات، ويفعل فيهم ما يفعله البدائي الذي يؤمن بالسحر، حين يقيم اتحاداً موهوماً بين أعدائه وبين دمية بين يديه، أو ورقة بين أصابعه، فيحطِّم الدمية أو يغرز الورقة بالدبابيس، متصوِّراً أنَّهُ يفعل الأفاعيل بالأعادي)[2].

---

[1] ابن حبيب النيسابوري- عقلاء المجانين- ص٩.

[2] جابر عصفور- النقد الأدبي والهوية الثقافية- كتاب دبي الثقافية- ٢٠٠٩- ص٧٩.

ديمو[1]

ترجمة: سامي الحاج

كلب القرية كان اسمه ديمو، وأطفال القرية وشيوخها يعرفونه جيداً، ويذكرون الكثير من الحكايات والأحداث عنه والكثير منهم لديه ذكريات طفولة معه. أهل القرية يشهدون أنَّهُ عندما كانت الضواري تدخل القرية وتحاول الاقتراب من حظائر الأغنام فإن ديمو كان يشتبك معها حتى صياح ديك الفجر، وعندما كان الناس يتحدّثون عن الأمانة والوفاء والخبز والملح فإنَّهم كانوا يذكرون الكلب ديمو مثالاً:

- ليت جميع الناس كانوا في وفاء ديمو، لكننا تركنا بساتيننا وبيادرنا ومالنا دون حراسة.
- هيهات!

ويتناقل الناس على لسان حكايات(عه لويَ زه لي) وابنه (احمد) حيث يقع بيتهم في أقصى طرف القرية، عندما تقاتل ديمو ومجموعة من كلاب القرية مع النمر، ولمّا يبادر أحدهم بالسؤال

دهشة:

نُشِرَتْ في جريدة بزاف/ بغداد في عددها ٣ بتاريخ ١٥/ ٨/ ١٩٨٩. بعد عمليات الأنفال.[1]

- هل حقا ذلك؟

كانا يَرُدَّانِ عليه:

- إذن تعال لنذهبَ معاً نقتفي آثار دماء النمر حتى أطراف القرية.

كان الأب والابن يُرَقِّعُ أحدهما للآخر، وهما يسردان كيف قادا قطيع كلاب القرية ليهجموا على النمر، كان (عه لو يي زه لي) يخالف ابنه في أمرٍ واحدٍ فقط، وذلك عندما كان ابنه يقسم بالسماوات والأرضين، أنهما كانا نمرين وليس نمراً واحداً.

كان أبوه يقول:

- بني عذاب القبر شديد ولا يمكنني التأكيد أنَّهما كانا نمرين.

إذا تَطَلَّعَ أحدهم في وجه الأب، كان يسرع بالقول:

- يا بني، إنَّها الشيخوخة وويلاتها، ورغم أني لم أعُدْ أملك قوة البصر والملاحظة كما في السابق، لكني متأكد أنَّ النمر الذي شاهدته كان أبقعاً واضح المعالم.

كلُّ واحد في القرية يعرف قصةً أو حكايةً لديمو، وأهالي القرية يتداولونها أحياناً في مجالسهم، حتى أن البعض منها غدا أساطيراً وحكايات ومنها أن ديمو التقى ذات مرة بأحد الذئاب، فقال له الذئب:

- لي طلب واحد فقط منك، وهو أنْ تعطيني حاسة شمّك وسأعطيك حاسة بصري.

فأجابه ديمو:

- لو أعطيتك حاسة شمّي، فإنَّك لَنْ تُبقي حتى على الأطفال الرُّضَّعِ في مُهُودِهم.

هكذا كان أهل القرية يستحضرون هذا المنظر وكأنهما شخصان جلسا يتناقشان بدبلوماسية لكنهما لم يتفقا! فانصرف كلٌّ منهما في طريقه، وبقي ديمو كلباً وظلّ الذئب ذئباً!!

ولو حدث وجاء أحد الغرباء إلى القرية فإنَّ ديمو كان ينفعل، لا يشعر أهل القرية كلهم بذلك، يبدأ بالنباح المتَّصل والركض وراء الغريب حتى يوصله إلى الدار التي يقصدها، وإنْ أبدى امتعاضه وقال:

- يا له من كلب هائج كلب القرية هذا، لقد ظلَّ يَتْبَعُنِي من طرف القرية حتى باب البيت!

فإنَّ عشرة أشخاص كانوا ينبرون له ويصبحون لديمو محامين ويدافعون عنه:

- لا، إنه كان يُرشدك إلى البيت، لأنَّهُ يعرف أنَّك غشيم تجهل الطريق.

- إنه كلبٌ وَفِيٌّ، غَيْرُ ناكرٍ للزاد والملح.

ويبدؤون بسرد الحكايات والحوادث، وكان على الضيف المسكين أنْ يؤيد ما يقولونه وإلاّ...... بركة من الله، فإن أحاديثهم لم تكن لتنتهي.

ذات مرة قال الجاويش رئيس مفرزة الشرطة:

- هذا الكلب يستحق أنْ تُطْلَقَ عليهِ خرطوشة خنازير، ما إن نصل طرف القرية حتى يبدأ بالنباح، ولو كانت القرية مليئة بالمهرّبين لتمكّنوا من الإفلات ونحن لَمَّا نَصِلْ وسط القرية.

تغَضَّنَتْ جباهُ القرويين، وَتَعَكَّرَتْ سِمَاتُ وجوههم، فَطَنَ الجاويش أيَّ خطأٍ ارتكب، بادرَ إلى الابتسام وقال وهو يتصنَّع ضحكةً باردة:

- لكن أتظنّونني لا أعلم؟ مَنْ يقتل هذا الكلب، صدّقوني ستنشب بينكم وبينه عداوة، حسنا ألا يموت؟ كلب ويعيش كلّ هذا العمر!! لقد شاب شعر رأسي وما رأيت شيئاً كهذا.

قال هذا وهو يزيح بيريته جانباً، بانت شعرات سود متناثرة هنا وهناك.

- هذه حالنا مع ديمو، لا نقدر عليه الآن، ماذا بوسعنا أنْ نفعل؟ ماذا نقول؟ سلّمنا أمرنا إلى الله. واتّكأ على وسادتين أو ثلاث.

شَعَرَ مختارُ القريةِ أنَّ عليهِ أنْ يُطْفِئ هذه النار، وبشكلٍ لا يُغضب الضيف وكذلك القرويّين:

- جاويش حسين، بالله عليك تفضل ولفّ سيجارة من كيس التبغ خاصتي.

فكّر الجاويش حسين في الأمر مليّاً، يعرف أن تبغ المختار ذو نوعيةٍ جيدة، وإذا قال له "أيّة نكهة طيبة لهذا التبغ يا مختار"

طبعاً المختار سيقول له (تفضل وخذ معك ما يكفـي غليونـك لهـذا العام).

لذلك فقد آثر الصمت، هزَّ رأسه وقال مع نفسه "وا حرّ نفسي" وهجم على الكيس!

* * *

غيوم ومطر، وقد لفّ الغمام والضـباب أرجـاء القريـة الأربعـة، رغم أن الأرض قد اخضَرَّتْ، وفي الأيـام المشمسـة تحلـو الأجـواء، في الربوع والسهول المحيطة بها.

لكن العارفين بأحوال الطقـس والمنـاخ كـانوا يقولـون "يبـدو أنَّ الشتاء قد ندمَ على رحيله وهو يتأهَّبُ للعودة ثانية"

الأمرُ الذي ظلَّ لسنواتٍ طـوال يقولـون أنـه سـيحدث! وصـدَّقَهُ البعض، فيما البعض الآخر كان في حيرةٍ من أمره ... صـحيح، لا، ربمـا لا!! نعم هذا الأمر، هذا الحلم غدا حقيقـة، عـلى القريـة أنْ تنتقـل لأنها ستختفي بعد حين تحت أرض الـــ (...)

* * *

القرية سترحل.. تأهب القرويّون للرحيـل، هـذا جهّـزَ تراكتـوره، وآخر أخرجَ ما عنده من دواب، فيما آخـرون حملـوا أمتعـتهم عـلى ظهورهم، كلهم يتهيّئون للرحيـل، فـما كـانوا يتحـدثون عنـه طـوال هذه السنين ويجترّونه قد أصبح حقيقة يرونها بأمِّ أعينهم.

- ها (احمد زه ليَ) هل رأت العين ما كتب على الجبين؟....

- كفى بالله عليك، لا تزد من همومنا.

انبرى لهما العديد من القـرويّين وقـالوا لهـما دعـوكما مـن هـذا الآن، سيصيبنا الطوفان ولن ينجو أحد منا.

اتخذ القرويون طـريقهم وزحفـوا كالنمـل وهـم يخرجـون مـن القرية، لم يبق أحد في القرية سوى ديمو.

كان ينبح وهو يعدو خلف إحدى العائلات المغادرة حتى تصـل طرف القرية، ثم ينقلب عائداً وهـو يلهـث متقطِّـعَ الأنفـاس حتـى يصل وسط القرية، ويأبى الذهاب مع أحـدهم، كـان يحـاول أحيانـاً قطع طريقهم ولكن ما من أحد حاول أنْ يرشقه بحجر، ربمـا خوفـاً من القرويّين وربما إشفاقاً عليه.

كان هذا شغل ديمو حتى أرخى الليل ستارته على القريـة وعـمَّ الظلامُ كلّ مكان، ظلَّ يدور حول القرية ولم ينقطع نباحه الذي كان مرات يستحيل أنيناً، وأحياناً أخرى عويلاً. الصمت يلف القرية وكأن القرويّين أصابهم الخرس، لا نباح ديمـو ولا حـديث يـدور في القريـة يكون هو محور موضوعه.

وبعد عدة أيام عاد بعض القـرويّين ليتفقـدوا خرائـبَ قـريتهم، فلربّما كانوا قد نسوا حبلاً أو صفيحة أو غرضاً ما، لكنهم عثروا عـلى ديمو، مُمَدَّداً بجانب حائط وقد فارقَ الحياة.

جاء دلير

ترجمة: فيصل مصطفى

منذ فترة والخالة خديجة واقفة أمام الشباك وقد وضعت يـدها تحت ذقنها تنظر إلى الشارع وتتفحص كل شخص يمـر أمـام عينيهـا من شعر رأسه إلى أخمص قدميه.. عيناها تراقبـان الشـارع وأذناهـا تراقبان الباب.

- "أقسم بالله أنـه هـو، "اسـتغفر الله" كـان يشـبهه.. كانـت ملابسه تشبه ملابس دلير.

يأتي شخص ملفوف العمامة.. عبر الشارع بأربع خطوات.

- من هو.. هـل أعرفـه أم لا؟.. اقـترب.. طـرق البـاب ثـم فتحـه.. دخل الغرفة وكأنه يحمل بشرى سارة.

- خيراً؟

- إنه خير.

- أين دلير؟

- سيأتي دلير..سيأتي، كيف لم يصل حتى الآن؟ ظننت أنه قد وصل قبلي.

- بالله عليك.. هل هو حيٌّ لم يمتْ؟

- لقد تجولت مع دلير كثيراً في مدينة "ك" تجولنا في جميع الشوارع والأزقة، وتناولنا غداءنا معاً.

- ماذا أكل دلير؟

- تمن ومرق.

- إنَّهُ يؤذي معدته، كيف أكله؟

- لا أتذكر جيداً ماذا أكل.

* * *

خطف التفكير الخالة "خديجة" وهي تمسح الدموع بأزرارها.. ولدي دلير حزامك الذي توجد فيه الورود الكبيرة هو الذي يتلاءم مع لون ملابسك.

- لا تلف عمامتك هكذا، أسرع والتحق برفاقك قبل أن يتركوك.

- لا تنفرد في الطريق.. الصديق كالصخرة، لا تتركوا بعضكم بعضاً.. الذئب يأكل الغنم عندما تتشتّت أفراده ويرتبك الراعي.. تكاتفوا.. مسكينة أنتِ يا أم دلير كان لك هذا الابن الوحيد وقد أرسلته ليواجه الرياح والعواصف.

- سوف أقول في المجتمعات بأن "ولدي دلير" شجاع وافتخر به.

- كفى يا خالتي خديجة، لقد أضنيت نفسك جرّاء البكاء إنه حي، لقد قال ولدي بأنه شاهدهُ سليماً كفأس الملاّ. وأنهما تجوّلا في أزقّة و شوارع مدينة "ل" إلى أنْ شُلَّتْ أرجلهما.

- فدتك أمك، عِشْتَ رجلاً.. لقد أُصيبَ ابني دلير ولا يستطيع أن يأتي.. تعال يا ولدي لكي أُقبّلك كثيراً.. سوف استقبله في مدخل البيت وأضع رأسه في حضني لكي يرتاح فهو تعب جرّاء سفره الطويل.. صوت الباب وهو يُفْتَح أعادَ الخالة خديجة إلى وعيها.

- كفى.. لا تبكي.. فقد عذبت نفسك وعذبتنا معكِ. ألمْ يمتْ أحد؟ ألا يُقتل أحد؟

- كلا.. ماذا يهمّكم.. ليس له أحد وليس له أب.. ماذا تخسرون أنتم؟

- غطّى صوت بكاء الخالة خديجة جميع الأصوات.

- لا حول و ..

- ماذا نفعل بهذه المرأة يا إلهي؟

كان مدخل بيت الخالة خديجة كمدخل السوق مفتوحاً دائماً، يدخل شخص ويخرج خمسة أشخاص، وكلّ واحدٍ منهم يحمل أخباراً جديدة لها، وكانت أحياناً تفرح بها.. أخذها الخيال.. كانت تظهر ابتسامة على شفتيها وتختفي وتنزل دموع الفرح من عينيها.. وضعت يدها فوق كتف دلير.

- أبْعدَ الله عنكم كل بلاء ومصيبة لأجل الغوث الجيلاني.

لم تكن الخالة خديجة فرحة إلى هذا الحد قبل الآن، ماذا بها اليوم؟

كان هناك في أحدِ أركان الغرفة شخصان، قد انفردا بأنفسهما مادّين أرجلهما لا يشاركان في الحديث وهما يتهامسان فيما بينهما..

- يا رب مدّدْ في عُمُر دلير عُمْرَ "نوح"، لكن أغلب الظن أن دلير قد مات، وكأنَّ جرّة من الماء البارد قد سُكِبَتْ على رأس صديقه.

تفاجأ وأراد أن ينهض..

- كلا.. صحيح.. كيف.. كيف.. شعر بالخجل وخاف من أنْ يسمعه أحد.

- أخفض صوتك يا هذا لكي لا يسمعك أحد ولا تنطق بهذا الكلام.

- لا والله.. كيف..

بعد أن تفحّصَ الحاضرين وتأكّد من أنَّ أحداً لا يسمعه..

- يقال إنه في إحدى المعارك.. لم يكمل كلامه حيث قال أحدهم:

تفضلوا يا أخواني وانصرفوا لكي تأخذ أم دلير قدراً من الراحة. لا أحد يعرف عنه الحقيقة.

- قل هكذا.. رحمك الله.. ما معنى ذلك الكلام الذي كنت تقوله..

كانت الخالة خديجة معروفة لدى جميع أهل المدينة.. وكان صوت نعالها يُسمع في جميع الأزقة.. كانت تروي قصة ابنها للجميع ممن تعرفهم أو لا تعرفهم.

- من لم يسمع قصتها مرتين فقد سمعها مرة واحدة بالتأكيد.

- ولدي دلير عين الحسود تُصاب بالعمى. انك تزهو وشاربك السوسني اللون.. يبدو أصفر.. التحق برفاقك.. العصافير تغرّد فوق شجرة الصفصاف كأن ضيفاً سيزورنا. ليته كذلك، ترى من سيكون ضيفنا؟

- كان الذكر يقول للأنثى دعينا نبني لنا عشاً فإن هذا الخريف سيأتي متأخراً.. طار العصفوران وتركا عشّهما القديم أيضاً ولا يزال باب دار الخالة خديجة مفتوحاً في انتظار ضيف ما والضيف هو دلير.

- لن يأتي دلير..

إنه صوت يأتي من بعيد يمزّق ستارة منتصف الليل ويردّد:

- لن يأتي دلير.. لن يأتي دلير.. و كان الصدى يملأ شوارع وأزقة المدينة.

- لن يأتي دلير.

* من مجموعته القصصية "قصة لم تكتمل" الصادرة عام ١٩٨٣ في بغداد.

صيد الأسود

قصة و ترجمة: أنور محمد طاهر

غرفة جدرانها البيضاء تعكس صورة المرء فيها من شدة البياض، فيها سرير واحد وعدد من الكراسي على طرفي السرير.

فتح عينيه وكانت الغشاشة فيهما تحجب عنه الرؤية الواضحة. فرك عينيه براحة يديه فظهرت الغرفة أمامه بشكل أكثر وضوحاً فالتفت إلى يمينه و يساره فلم يجد أحدا. الكراسي والغرفة خاوية وصامتة.

- ما هذا؟! إني وحيد.. فتح عينيه بقدر ما استطاعت حدقتاه من التفتح.
- آه.. لا أحد.. لا أحد.. أنا وحدي لا أحد هنا.

فالتفت على منكبيه مرة أخرى ليتأكد أنه وحيد.

((ليست هي المرة الأولى... تبقى وحيداً فيها هذا شأنك معهم)).

- لهم الحق في ذلك لم تغمض لهم عين الليلة الماضية، قد ذهبوا إلى استراحة قصيرة. كان يحدق ملياً في السقف تتراءى له عدة مواقف و مناظر مختلفة و متباينة.

- ها تلك قريتنا في وادٍ عميق تحيطها الجبال من كل الأطراف.. ها ذاك الجبل الذي كان من يتحدى صعوده يشهد له أهل القرية بدخوله سن الراشدين وينتظر فتاة أحلامه.

* * *

فتح الباب، التفت إلى يساره... عرف بأنها حيّته بتحية الصباح ولكن لا يعرف كيف يرد على تحيتها.

- دعهم و شأنهم ألا تعرف من هم؟

إنهم عالم الحضارة.. وأنت من عالم الفاقة والبؤس نحن عالمان مختلفان ولن نلتقي أبداً.

((ألم تشاهد من شاشة التلفزيون.. أن كثيراً من السيّاح والصيادين من عالمهم يقصدون أقطاراً إفريقية ليقضوا أجازاتهم في لعبة صيد الأسود)).

- يا له من عالم عجيب وكم دارت فيه الأيام وتبدّلت الأحكام والقوانين من كان يدري إنه في مستطاع أحد أن يصيد أسداً بشباك. من كان يدري أن يأتي يوم يستطيعون صيد الأسود بالشباك وأكثر من ذلك الحد بأن يجعلوا من تلك الأسود أضحوكة لهم في السيرك يستمتعون بمشاهدة أسد يرقص.
- دع ذلك.. وضع رأسك ليرتاح على مخدتك ألا يكفيك كل ما رأيته؟
- و هل أتوقف.. وأقول كفى.. لا.. لا.. لا.
- ما بك مندهش ((بفلم صيد الأسود)).

ألم تكن تعلم بأن العالم محيط واسع، الأسماك الكبيرة تأكل الأسماك الصغيرة.

- إذا كان العالم كذلك فعلى الأسماك الصغيرة أن تترك المحيط.. و لكن يموتون خارج الماء. إذاً ما العمل؟!
- ليكونوا على حافة البحر بين الماء و اليابسة.
- أي عالم هذا ليس له حدود!! لا في البحر ولا في البر. وأمواج البحر تحطّم تلك الحدود بين مدّها وجزرها.
- نعم وسيقوم صيادو الأسماك المبتدئون بتعلم المهنة هناك.
- أذا عدت مرة أخرى إلى ديارك فاجعل الكلمات أقراطا في أذنيك.

كان الثلج يتساقط لعدة أيام، والليلة تقشعت الغيوم، ليلة صحو تتراقص الأنجم في السماء الصافية وشباب القرية في عجلة من أمرهم متى ينجلي الصبح ليذهبوا إلى صيد الحَجَلِ.

- لا تعدوا إلى العشرين أنا الذي سأصعد الجبل وابقوا في الوادي وسأطارد لكم أسرابها.

وفي الصباح كانوا يحملون عدّة الصيد قاصدين الوادي وهو يتراكض بخطى ليصعد الجبل.

- لقد تعفّن ظهري من كثرة نومي على هذا السرير ليس هناك أحد يساعدني على حركة أو قيام!!
- لا ليس هناك أحد يساعدك.

- أنت وحيد أين أولئك الذين كانوا يحضرون أفراحك وكانوا لا يدعونك لحظة تحلم أو تخطط وحدك.

- لا ليس جميعهم دون وفاء أو إخلاص ولكن أنت بعيد كبعد جبل قاف عنهم.

- لا أبعد من جبل (قاف) بكثير، إنك عبرت بحاراً ووهاداً إلى أن وصلت هنا.

في يوم الجمعة كان إمام القرية يردّد قائلاً أن الذي يموت في البيت الحرام ستكون له في الآخرة قبّة كبيرة على قصره ليكون دليلا على علو شأنه ومكانته عند الله ولذا كان كثير من المعمّرين من قريتنا يقصدون بيت الله عسى أن يجعل الله مثواهم في بيته الحرام.

فتح الباب ودخل ثلاثة رجال وقفوا أمام سريره وقرؤوا كلّ الأوراق المعلقة على السرير وتحادثوا فيما بينهم. كان أحدهم ذو جسم ورأس ضخمين، عندما يتكلم كان الآخرون يُطأطئون رؤوسهم علامة للتأييد والإيجاب ويتغامزون بأعينهم تحت النظارات وكأن حركاتهم تنمُّ عن أنهم اتفقوا على شيء.

- إنها ليست المرة الأولى التي يتفق الثلاثة على مستقبلي ومصيري.. وبهذه السرعة اتفقوا؟ ماذا قالوا؟ عجيبٌ أمرهم!!.

- ألا تعرف أنهم في كلّ مرة ينصبون لك مصيدة عندما كنت في القرية كانوا يلعبون لعبة الطاقية والبيض، يضعون ثلاث طاقيات فالماهر يكشف عن البيضة في رفع الطاقية الأولى،

وكان هناك في القرية رجل يدعى "حه جي ئه حمو" الذي كان يتباهى بحنكته وإجادته في اللعبة وقد شاع هو بأنه حج إلى بيت الله.

ولكن هذا الحج والزيارة مثار شكوك أهل القرية، كان كثيرون يقولون أنه لم يبتعد كثيراً، تردَّدَ على بعض المدن القريبة، وفي إحدى سنوات القحط والجدب ترك القرية مع مَنْ تركها مِنَ القرويين بحثاً عن لقمة عيش في المدن.

فقد كان "حه جي ئه حمو" يخدم في بيت أحد الميسورين وعندما عاد إلى القرية ادعى بأنه حجَّ بيت الله فكان قد سمع بعض أحاديث عن مدينة رسول الله وقبره ويضيف الكثير من عنده ليرسم لبسطاء القرية عن حقيقة زيارته ولا ينفكّ بالحديث عنها في أكثر المجالس.

وكانت خبرته وإجادته اللعبة جعلت من أهل القرية أن يضيفوا إليه الكثير من الخوارق والأعاجيب حتى كانوا يقولون إنَّ الجن يساعدونه في كشف أسرار اللعبة. وفي إحدى المرات كان مختار ووجهاء القرية مجتمعين يزاولون هذه اللعبة.

ولكن في هذه المرة لم يصب "حه جي ئه حمو" الهدف وخذل كثيراً لأن معلم القرية كان رجلاً ذا معرفة وحيل ومكائد أعدّ ثلاث طاقيات ولم يضع في أية طاقية بيضة فكان من المفروض أن يكشف "حه جي ئه حمو" البيض من الطاقية الأولى وإذا لم يكشف الأولى ففي الطاقية الثانية يجدها، وأعيدت الكرة ثلاث مرات وفاتت

الحيلة على "حه جي ئه حمو" وأصبح أضحوكة أمام أهل القرية، ومن ذلك اليوم تاب توبة لا رجعة فيها من مزاولة اللعبة وكان يتحجّج ذلك بأنه تاب على يد إمام القرية الذي نهاه ولكن إذا أصر عليه أحد باللعب يقول:

- قسما بالكعبة التي زرتها إني لن العب أبداً.
- طبعا.. تقسم بالكعبة التي لم تزرها أبدا.

* * *

صحيح.. ماذا يقولون هؤلاء؟ ما هي علّتي و مرضي؟ أَلَمْ يستطع كشفها لحد الآن؟

- لا هم "جالينوس" العصر لا أحد بعدهم.
- يبدو أن مرضي بسيط وباستطاعتهم شفائي ولكن لماذا هم في حيرة من أمرهم قد يفكّرون في دواء لعلّتي يعيد لي العافية والصحة.
- رحماك يا "خاله شور" كانت لا تفكر كثيراً في إيجاد دواء لأن صيدليتها ثلاثة أو أربعة أدوية تخلطها و تعطيها لمرضاها.
- أتشفى أم لا تشفى ليس بمشكلتهم.
- الطبيب الذي في الوسط طويل القامة ذو بشرة بيضاء وعيون زرق أكثر منهم علوّاً ومرتبة ما إنْ يقول كلمةً، حتى يُطأطئون رؤوسهم تأييداً لكلامه، الكلمة هي كلمته ومصيرك بيديه وأنت تحت رحمة ضميره ووجدانه.

كيف عرفوا متى يأتي الأسد إلى عين ليرتوي حتى ينصبوا شباكهم؟.. و لكن لماذا يكون الأسد بهذه السذاجة حتى يأتي في طريقهم ويقع في شباكهم؟

بهذه البساطة ينخدع الأسد ويقع في الشباك ولم يستطع الفكاك منه رغم محاولاته العديدة وكلما يحاول الفكاك يزداد ضغط الشباك على جسمه ومن المستحسن أن يوقف حركاته ومحاولاته الخائبة.

- لماذا يأتي الأسد إلى الماء حتى يقع في الشباك؟
- الأسد.. هو من لا ينخدع!!
- عليك الرحمة يا - صوفي حسن — و جعل الله مثواك رياضاً ونوراً عندما كنت تقول:
- هم.. خنازير.. يصيدون الأرانب بالعربة.
- بهذه السرعة اصطادوا الأسد الذي هو ملك الغابة وبعد ذلك يضعونه في سيارة وثم في طائرة ويحشونه كأيّة بضاعة إلى قارّتهم ويضعونه بين قضبان في حدائقهم ليجعلوه فرجة ومضحكة لأطفالهم.
- ألمْ ينتهِ حديثهم فوق سريري لقد خطّوا بالقلم كثيراً على الأوراق التي في أيديهم ماذا بقيَ ما لم تتفق عليه؟

يبدو أنهم يجهلون تشخيص مرضي، أقول لا تفكّروا بذلك كثيراً وإنكم تدقّقون حساباتكم مرات عديدة ماذا يقول الكومبيوتر

والإنسان الآلي، إن إحساسكم وعواطفكم باردة كبرودة الإنسان الآلي الذي يستخدمونه كثيراً ضمن حساباتكم ومالكم متكالبين عليّ. أراد أن يجمع قواه ويقف على رجليه ويصيح بهم بأعلى صوته.

ماذا تريدون مني؟ الحفرة التي حفرتموها قد وقعت فيها.

- لو كان في استطاعتي أن أقف على رجلي وأترك هذه الأقطار وأعود إلى موطني بين الجبال والوديان، وكنتم لا تستطيعون اقتفاء أثري لأني كَوَعْلٍ جبليٍّ سوف أتوه بكم في شعاب وطرق لا تعرفونها.

استجمع قواه في محاولة أن يقف منتصباً ولكن قدماه خانتاه.

- خسئت.. يا أرذل العمر أنا أظلّ مقعداً على سريري ولا أستطيع الحراك.. أنت مازلت تفخر بقوة الشباب ولا تعرف أنك لا تستطيع حراكاً من مكانك.

الفخّ الذي أنت فيه، هو من صنع يديك أم هم الذين وضعوك فيه؟ الأمر سيّان أنت الآن فيه بعيد عن الوطن ولكن أين هم الآن.

- ازرين، شورش، بيوار – وهل هم يتحمّلون رمضاء الصحراء؟
- أنت تتحمل مآسيهم.
- ولكن من يتحمل مأساتي؟

دعْ تلك الحكاية إنها حكاية لا تنتهي.

الرجال الثلاثة كانوا يتبادلون النظرات، وكان رئيس الفريق الطبي، قد أمضى بقلمه وترك توقيعه على الورقة، وكذلك فعل

الآخرون. وحتى قسمات وجوههم كانت صامتة لم تدل على حزن أو فرح.

- كأنهم يعدّون أنفسهم لأمر عظيم سيحدث، ماذا تريدون؟ إني كنعجة ((عيسىَ ده لال)) تارة تروني الحشيش وأخرى تروني الذئب.

ولكن تريدون إنهاء تلك اللعبة وستقومون بما تُمليه عليكم مصالحكم أم كنتم تريدون اختبار بعض أدويتكم؟ لقد وقعت كثيراً في مأزق وأصبحت قريباً وقريناً للموت واليوم أنت راقد على السرير ولا تستطيع حراكاً على منكبيك ولا اعرف أن أحدثهم بما أريد وعندما أغفو في فراشي اشعر بعذاب مرير ليس له مثيل.

* * *

هذا النهر الهادر لا يستطيع كائن من كان أن يعبره، جمهرة من الرجال قد اجتمعوا على ضفافه ينتظرون آخرين سيأتون.

- ولكن من يعبر هذا النهر الغاضب بهديره. إن من يعبره يكون في جب الغيب ولكن الرجوع موت آخر.. وجحيم ليس بعده من جحيم فماذا تختار وأي اختيار هذا.
- سنعبره و لن نتراجع وذلك هو اختيارنا بين الموت أو عبور النهر.
- من يعبر هذا النهر المتلاطم المجنون في أمواجه وهو خاوي البطن.

وضع يده في النهر فدفعته قوة التيار.

- لا تدع الخوف يدخل فؤادك إن الطبول تولد كثيراً من ضجيج ولكنه فارغ ولا يسرح بأفكاره ليقدم بشيء.

- سنلقى ما كتبه الله لنا ولكن لماذا كلّ ما كتبه مآسي.

و لكن كن متيقظاً لا تسلّم لهم رفيقاً حملته كثيراً على منكبيك وحاربت ودافعت عنه.

- ولكن لماذا؟ هل هم من..؟!

- وصية قديمة إياك مخالفتها.

هناك حكاية لازلت أذكرها منذ أيام الطفولة ولكن أصبحت عقدة دون حل.

هناك غزال وأسد في الطريق، الحشيش أمام الأسد تضع أمامه اللحم والحشيش أمام الغزال الأسد سيزأر ولكن أسلك طريقك، هذا النهر يفيض أولا يصل إلى ركبتيك، أو تكون كصراط مستقيم ماذا تنتظر مصيدة وقعت فيها ومعبر ما عليك إلا أن تغيره.

- ""رَشُّوْ"" إياك ونفسك وانجُ بجلدك، لعلَّ "رَشُّوْ" وأجداده لن يستطيعوا النجاة في يومٍ كهذا، أمواج وهدير هذا النهر الغاضب، يخفي شرّاً مستطيراً؟

لم يتوقف عن الحركة حول ضفة النهر لحظة.. في هذا البرد تعرّق جبينه فمسحه بهدوء.

لو كنت وحدي لهان الأمر و لم اشغل ذهني بهذه الأفكار.

- ماذا "سلو احمد" فقد غرق عند عبوره النهر، أول الغيث قطرة.

- إنه كان شخصاً زئبقيّ الحركة لم يسكن له قرار.
- دع من ملامتك.. إنها دماء الشباب.
- نعم كان في ريعان الشباب ولم تنبت له لحية.
- تذكر الله.. إنك لا تحتاج إلى قول أو وصية توصي من بها؟.. و من يصل إلى الحافة الأخرى؟ كلنا تحت رحمة أمواج هذا النهر الغاضب المتلاطم.

* * *

مرة أخرى عاد إليه الألم و صار يلتوي من شدته وعيناه كادتا أن تنفجرا بالدموع و لكنه كان لا يتظاهر أمام احد بذلك، فهذا من طبائعك الحسنة، لو حصل الطوفان فإنه لا يصل إلى ركبتيك هذا ما يعرفه أصدقاؤك وأعداؤك.

* * *

تلك الفتاة دخلت كرة أخرى كان الثلاثة قد اختاروا لي هذا الدواء.. حسبهم إنها تعيد إليّ الصحة والعافية.

- كفاني أدويتكم لقد أصبحت كالجثة التي تقع بين مخالب النمر، إني لا أريد أن أتصبّح بوجوهكم كأنكم تريدون سلخ جلدي عن لحمي.

بلع ريقه في محاولة أن يدفع الدواء إلى معدته ووضعت تلك الفتاة يدها فوق جبينه لتمسح العرق عن وجهه بكل حنان، واخفض شيئاً من مخدته.

- إن تلك الفتاة ليست من جنسهم و لونهم.

لا تدري أي أقدار حمقاء جاءت بها إلى هنـا، يـداها وابتسـامتها المليئة بالحنان تبرد كثيراً من أحزاني كأنها ترى فيَّ صورة والدها.

طريقة كلامها ومحبتهـا لا تشـبه هـؤلاء قـد تعـرفين شـيئا عـن تاريخ حياتي، أو تعرف أني قارّة الجـوع والتشر ـيد مـن تكـونين فـإني أحسّ بك كإحساسي بأبنائي وقلبك لا يشبه لونك وأصبحت بعطفـك الإنساني خير أنيس لي.

* * *

عندما تنام و تجتر الذكريات القديمة، تنسى آلامك وأحزانك.

- ها لقد عبروا الضفة الأخرى من النهر ولكـن لم يبـقَ خـيط غـير مبتلٍّ في ملابسهم.

* * *

دخل شخصان الغرفة يحملان في يديهما زجاجة و أدوية.

- ها قد عادا لياخـذوا دمـوعي إلى المختـبر. لا اقبـل ذلـك ولكـن ليس بمقدوري أن افعل شيئاً.

لقد فقدت كثيراً من الأعزّاء ولم اذرف دمعة واحدة وتريدون أن ابكي وأنا أمام اقلّ ما يقال عنهم بأنهم أعداء.

- كلا كل شيء يمكن أن يحدث أما هـذا فـلا قضـيت هـذا العمـر الطويل ورأيت فيه مصائب ونكبات اعتبر ما يحدث الآن نزهـة و لكن لم استسلم و لم أتحطم.

- إذا تريـدون دمـوعي الحقيقيـة للفحـص في مختـبراتكم هنـاك طريقة سهلة أقولها لكم.. وهي.. خذوني إلى حدود وطني فـإذا رأيت شجرة البلوط ولم تصلها يداي حينئـذ سـتنفجر في عيـوني

دموع حبيسـة، وإذا كنـتم تـرون صـعوبة في ذلـك دعـوني أرى جائعاً ومتشرّداً من وطني حينئذ ستنهمر دموعي كالمطر.

- وضع احدهم شيئاً من الدواء أمام جفنيه وأخـذ الآخـر أنبوبـة زجاجيّة أمام جفنيه وكرر عملية وضع الدواء أمام جفنيـه مـرة أخرى. فتساقطت بعض القطرات من الدمع.

لا إنها ليست دموعي.. أبداً.. لا.. لا.

- ماذا بقي لك في هذه الدنيا إنك لم تعشْ يوماً في مكان ولم يكن بمقدور كائن أن يقف في طريقك، واليوم كيف وقعت في فخّهم و يتآمرون عليك والكلمة التي تقولها يتجاهلونها.

- المعنى في ذلك كلّ ما بنيته تهدم وذهبت أتعـابي أدراج الريـاح بهذه السهولة.

- الأسد الذي يصطاد في القارة السوداء يسـجن ويوضـع في قفـص ولكن في قارّة أخرى، يعيش ويموت في نفس القفص.

- لا.. لا.. سـأخرج مـن هـذا السـجن، أخرجـوني لأمـوت في ظـلّ شجرة.. في أي مستنقع من وطني.

* * *

فتح الباب عرف إنهم أتـوا عـلى سـماع ضـجيجه خـوفي مـن أن يقولوا إنه مصاب بهستيريا أو يضيفوا على القائمة أمراضـاً أخـرى أو يقولوا أن عقله قد اختل لم يبقَ إلاّ هذا.

- لا الإنسان السوي بل هو من يخالف دساتيركم ومقاييسكم.

- ما هذه اللعبة التي تمارسونها ضدّي؟ ماذا تريدون مني؟ منذ كنت في الفطام وإلى أن احدودب ظهري لم تكف عنها وتارة أخرى يمارسونها نيابة عني.

- اسمعني لم أبيّضْ هذه اللحية باللبن هؤلاء هم فطموا بالحرام، لا تصدق كلامهم" قل" قالها الحاج حسين، وكان يمسك بلحيته و يهزّ برأسه، رحمك الله لم تبقك الأيام لترى بأمّ عينك صدقاً وإحساسا وتبقى عبرة للآخرين.

فتح الباب دخل ثلاثة سوياً.

- عذراً أيها العظيم لقد تأخرنا لقد رأينا احدهم آتيا من الوطن.

- استجمع قواه وأرادوا أن ينهض ولكن أصوات فقراته.. فصحَّ ما كان ينوي فالتقطوه الثلاثة.

- عفوك لا تنهض.

- دعوني و شأني لا تكونوا مثلهم سجّانين لي وتقيدونني بالسلاسل، دعوني لأرى هذا الآتي من الوطن، دعوني أسمعه وأشمّ من رحيق الوطن دعوني لأسافر إلى الوطن.

- واشتد الألم ومدّدوه على ظهره لينام، ومن شدّة فرحه امتلأت عيناه بالدموع فوضع راحتيه على عينيه حتى لا يُفْتَضَحْ سرّ لهيب الوطن.

- كان الأسد يتخطّى في قفصه، وينظر إلى قضبان الحديد ويفكّر في لحظة يترك فيها القضبان لأن الأسد يكون أسداً حينما يخرج من القضبان.

* نشرت هذه القصة في عام ١٩٨٤ في العدد (٩٦) من مجلة (به يان)

قصة الرجل الذي سقط في المصيدة ولم يقاتل

ترجمة: حسن سليفاني

ضرب برجله الأرض، قال وبصوت عالٍ:

- لا لن نخرج، كفى هرباً، هذا يوم القتال، يوم الرجال.

التفت إلى الخلف كمن يبحث عن شخص ليشهد على قوله، كونوا مثل هذا الرجل الشجاع الذي لا يعرف الفرار! لكنه لم يرَ أحداً.

كان يردّد هذه الجملة وأمثالها عشرات المرات. لم يبقَ مجلسٌ أو ديوان لم يردّدها فيه: إننا سنبقى و سنقاتل، وكان يضيف إليها الأمثال والقصص.

كان بعض الناس يؤيّدونه، لكنهم يوماً بعد يوم بدءوا يقلّون، يذوبون و يتلاشون كثلج الربيع.

و البعض كان يقول، هذا الرجل قد خرج عن طوره، كأنما قد أصابه مسٌّ من الجن.

يقال، كان يخرج من البيت صباحاً، ويذرع جميع الأزقّة والشوارع كما يؤدي فريضة. كان يودُّ أن يرى كل معارفه وأصدقائه، ما كان يدعُ أحداً يُفلت منه، وكان يغرقهم بالحديث وجلجلوتيته وكانوا يقولون، إذا لم يزرْ عشرة مقرات حزبية،

وعشرين بيتاً، و كلّ مقاهي المدينة، ما كان يهدأ له بال، ولا يعرف للنوم طعماً في تلك الليلة.

كان مظهره الخارجي كالسابق، لم يطرأ عليه تغيير، سوى أنه أصبح يحمل حقيبة قديمة، ليس فيها سوى بعض الأقلام والمجلات وأوراق بيض، إلاّ أن رأسه كان يحتوي على مئات الصفحات والتي كان قد خزنها كالكومبيوتر في ذاكرته منذ انتكاسة ثورة أيلول الكبرى وحتى اليوم. وكان يعرف شيئاً ما عن كل واحد، ما الذي فعله، وأين عرض بضاعته للبيع. حينما كان يروي قسماً من حياة شخص ما، كنت تدرك سبب حقده وغضبه هذا عليه، في بعض الأحيان كان يجب أن يراجع تاريخ حياة الاثنين معاً، لتدرك أن كان ثمّة خلاف شخصي في الموضوع.

يقال، حينما يسير وحيداً في شوارع وأزقّة المدينة في بعض الأحيان، كان يتكلّم مع نفسه، الكثيرون قد رأوه يحدثُ نَفسه، كانما يقرأ خطاباً للجماهير، كان أحياناً متجهّماً غاضباً، وأخرى ضاحكاً و باسماً حتى أن جاره الذي يفصله عنه أربعة بيوت، قال لقريب له:-

- خيراً ما بال الأستاذ؟ ليس على ما يرام، ألا يكون قد...؟

لكنه لم يكمل حديثه، قرب أصابع يديه الخمس من رأسه ثم أعادها.

لم يستطع أن يجيبه بشيء غير ابتسامة، ثم أردف قائلاً:

- يجوز.

هز رأسه و سار كل منهما في دربه.

بعض الأصدقاء المهتمّين في بحث المستجدات وتحليلها حسب نظريات علم النفس، كانوا يقولون، إن ميزان عقله قد اختل.

إنهم على حق، فهذا من الفرح قد حدث له هذا التغيير الكبير الذي أخلّ بميزانه، كثيراً ما كان يقوم بأعمال لا تتناسب مع سنّه مما يجعله محل دهشة وسخرية الكثيرين.

لم يكن راضياً دوماً عن كل الأمور، كلّما وجد أحداً من المسئولين كان يقول:

- هيا أسرعوا بالتغييرات، غيّروا وجه النظام، لا يصح أن تبقى الأمور هكذا.

الكثيرون كانوا يجيبونه، بأن التغيير الذي تنشده لن يحدث بين ليلة وضحاها، فالشعب الذي انتقل من نظام إلى آخر بحاجة إلى الكثير، ولن يتغير بموجب الكتلوكات.

* * *

حينما كانت الأخبار تشير إلى أن العدو سيشن هجوماً على المدينة. كان الناس في غدوٍّ ورواح مثل ذباب النحل حينما يثور، كان لونه يمتقع و مزاجه يتعكّر أكثر من كل الأيام الأخرى. كان يصرخ: (تعالوا، اليوم ليس يوم الهرب، اليوم يوم القتال، أين الرجال؟).

* * *

كان المساء متأخراً، حينما وقعت المدينة تحت رحمة القصف.

ارتفـع الـدخان في السـماء وسرعـان مـا ابتلـع الظـلام المدينـة وأخفاها، واستمر العـدو في إظهـار الحقـد و أنيـاب السـم. اسـتمر القصف حتى الصباح. كانت الرجولة هي أن تهرب وتنجو بجلدك!

* * *

عندما خرج من سردابه، رأى الجـيش قـد أحـاط بالبيـت كـاملاً، وأنه قد سقط في المصيدة.

- ثانية تركونا لوحدنا...

قال هذا، واتجه صوب العسكري ذي البيرية الحمراء.

١٩٩٦ دهوك

* من مجموعته القصصية (محاولة لوضع بانوراما ليوم كسوف الشمس)

لصوص الليل

ترجمة: حسن سليفاني

- من؟

للمرة الرابعة التفت إلى الوراء، تفحصني من أخمص قدميّ إلى قمة رأسي، حينما كانت حدقتا عينيه تتسعان، وكأنهما تنويان القفز من محجريهما.

من هو هذا الذي في سيمائه الحقد والكراهية، وكأن العقارب قد اتخذت من جبينه ووجهه مرتعاً لها.

في المرة الخامسة التفتَ إلى الوراء بغضب كأنه خنزير.

اتجه إلى باب البيت الذي تقع زاويته لصق الحائط.. كان الباب مقفلاً.. بهدوء ضغط على زر الجرس.. تعالى صداه.. كان ينظر بعين إلى الباب وبالعين الأخرى إلى ذلك الرجل المستقرّ في رأس الفرع مثل الزنبور، كان الرجل مربوع القامة يرتدي قميصاً أبيض يسدل على بنطلونه.

للمرة الثانية ضغط على زر الجرس.

- من؟
- أنا.

انفتح الباب، أراد أن يتصنع الهدوء بابتسامة عريضة، بانت سبعة من أسنانه، سلم عليها، أراد أن يطيل معها الحديث.

- خيراً.

- إن شاء الله خير.

- في الصباح، سأل أحدهم عنك.

بخوف و رعشة قام من مكانه، استقرَّ أمامها:

- من يكون؟ لماذا؟ ماذا قال؟ ماذا؟

- بسم الله.. لا شيء!!!

خجل من نفسه للكلام الذي قاله، ولم يأبه لذلك:

- وليكن من يكون...

- كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها صديقك هذا، لا أعلم من يكون؟

سحب قدميه بتثاقل، صعد الدرج: ما بك هكذا لا تبالي؟ أحقاً لم تعرف من هو؟

تمدّد.. أراد أن يطرد تلك الأفكار من رأسه، أنْ يبعد تلك الأحلام السوداء لـــ (ناكر ونكير) من أمام عينيه، ولكن هيهات له ذلك.

جن جنونه لم يستقر في موضع. ينهي الغرفة بأربعة أقدام، قبل أنْ ينهي سيكارةً، يشعل أخرى، تناول كتاباً، قلب بضع صفحاته لكي يبحث عن آراء وأفكار الفلاسفة و العلماء الذين يقولون: واجه الريح العاصفة وحدك، مثلما يقول المسيح، كفاكم تمسكاً بأهدابنا مثل الأطفال، ابدءوا المشوار، سيروا وحدكم..

- أحقاً يا خالة؟ قلت لهم من أيَّة محافظة أنا؟

لا لا شيء ربما يكون احد أصدقائي وأنت لا تعرفينه.

جاء صوت الجرس بقوة وصخب وتوزع في الأرجاء الأربعة للبيت، وكان البيت قد تزلزل، ها هم قد أتوا.

وقف على قدميه، صارعه الخوف، لكنه أراد أنْ لا يُظهر ذلك، قال بصوت عالٍ:

- ها أنا قادم.

تبا لكم، لتفعلوا ما تشاءون، كنتم تبحثون عني كثيراً، راقبتموني كثيراً واستلم مرتزقتكم المأجورون هداياهم الثمينة لرصدهم كل تحركاتي بدقة.

تعالوا ليكن لكم لحمي وعظامي، ولكن أفكاري لي فقط.

حينما نزل الدرج، ثانية قالت له صاحبة المنزل:

- خيراً؟

- من كان؟

بنت الجيران الصغيرة كانت تريد بعض الثلج.

- الثلج في هذا الشتاء؟

- يبدو أنَّ قلوبهم تتلظّى!!!

ضحك بصوت عالٍ وقال:

- صحيح...!!

سأنام، بكامل ملابسي، لكي أكون جاهزاً، عندما يأتون.

لكن الليل طال، لم ينم ليلة أطول من هذه، لم يفارق النوم عينيه فقط، بل أن الدوشك واللحاف صارا إبراً تنخس جسمه.

"لو أتوا.. فليأتوا.. الطير الذي يطير مع سربه: مكانه قفصكم.. وفق أوامركم سيشدو وسيصمت.

تململ الليل ليسحب نفسه من جسد الصباح.. الشمس تعمل جاهدة كي تعلو كل بنايات ومنارات المدينة.

حينما فتح الباب، وسلك قاصداً الكلية، ظهر له لصوص الليل ثانية وفي النهار.

احدهم كان واقفاً في زاوية البيت، مكان البارحة ليلاً.

علم أنَّ الدرس الأول، سيبدأ بعد دقائق.

لماذا يأتي في هذا الصباح الباكر؟ أليْسَ له أطفال؟ ألمْ يترك أولاده نائمين؟ ربما كان يود أنْ يتناول فطوره الصباحي مع أولاده ثم يأتي بعد ذلك.. ليس الأمر في يده، فهو مجبر.

كلما خطا خطوة، تتفتح عيناه أكثر.

- "لا تتردد. لست مخطئاً على الإطلاق.. أنا ذلك الشخص الذي تبحث عنه".

نوم الصباح ما يزال مؤثّراً فيه.

"هيا تعال وقيد يديَّ، لكي ترى الأحلام السعيدة في الصباح.. لن أذهب.. أجل..."

نظرا إليَّ بدقة من أخمص قدميّ إلى قمة رأسي.

- حقاً هو.

"لا تتردد، إنَّك على صواب، أنا على يقين أن رئيسك سوف لن يوبّخك، وأنَّك ستستلم راتبك كاملاً، طالما أنَّك تؤدي واجبك، تلازمني منذ ثلاثة أيام.. تعال ورائي، لن أحاول الاختباء والهرب في الطريق، إنَّها خطيئة لي أن أتعبك أكثر، أنت رجل قد تقدم بك العمر، ويعيش أطفالك من هذا العمل".

في الدرس الأول كان يتحدث أستاذ معروف بالعلم والخبرة والتجربة. حول الجريمة والعقاب. وأخيراً سأل أيُّهُما في الأول، العقاب أم الجريمة؟ أكان هناك ظلم فشرعوا العقوبات؟ انقسم الصف إلى نصفين.

- العقاب.
- لا
- الجريمة.
- لا.. الاثنان معاً.
- لا نحن لا نريد أنْ يكون هناك عقاب، ولا أن تدفعوا أحداً إلى الجريمة.

ضحك في وجهه. ما تقوله كان عصارة فكر وآراء أفلاطون الذي وضع أسس الجمهورية.

* * *

حينما عاد إلى البيت رأى الغرفة والحيطان على غير عهده بها، كان كلُّ شيء مبعثراً، مربكاً إلاّ أن المراة المسنة كانت على حالها حينما نظر في سيمائها، أدرك أن شيئاً ما قد حدث، لأنها و رغم سنينها العديدة، لا تستطيع أنْ تخبئ ما قد حدث.

- خيراً يا خالة؟

مثل بركان انفجرت، ونطقت بكل ما تعرفه من لغة السب والشتم والقذف.

أدرك أن الرجل الذي أوصله في الصباح حتى باب الكلية، قد عاد ثانية لينبش ما في البيت.

- لقد خبأت صورك وبعض الكتب الممنوعة في مؤخرة الحمام.

((يا ترى كيف علمت هذه المرأة التي قضت كل سنين عمرها في الأهوار، أن هذه الكتب ممنوعة)).

- إذا ما سألك احدهم، قولي له لقد سلك دربه نحو الأعالي.

- يعني انك ستقصد الجبال؟

- نعم.

- لكن قولي لهم ذلك.

- كان عليك فعل ذلك قبل الآن.

- أجل إنَّك على حق.

حينما كان يعبر (دجلة) كان ماؤه ينحدر نحو الجنوب بغضب هادر.

توجه إلى نبع طفولته وابتسامة شاسعة مديدة بطول قامة نهر دجلة كانت ترتسم على شفتيه.

بغداد ١٩٨٣

* من مجموعته القصصية الأولى: هذه القصة لم تكتمل.

* منشورة في "قصص من بلاد النرجس" ترجمة حسن سليفاني- ٢٠٠٢- دهوك.

العائد من الجحيم

قصة و ترجمة: أنور محمد طاهر

في تلك الليلة وكسابقاتها من الليالي كان جالساً لوحده في إحدى زوايا القاعة.

كانت ليلة شتائية، وهي في بدايتها، ولكن الجالس في الزاوية لوحده قد نفض زجاجات الكحول التي أمامه كأنه أنهى هجمات عطشى فوصلَ إلى النهاية مبكرا.

طريقة تدخينه المتواصلة، كانت بدون انقطاع وتجلب الانتباه وكانت حلقات الدخان تعلو وكأنها مدخنة معمل طابوق.

هذه الليلة الرابعة التي يدخل فيها هذا النادي ويرى هذا الشخص على حاله وصورته هاتين.

فكرةٌ قدحت في مخيلته فقال لنفسه:

- من هذا الشخص الذي يجلس وحده ويشرب بنهم وما أنْ ينتهي من سيكارة حتى يشعل أخرى؟ أنا شخص غريب هنا في المدينة، وجئت هنا بمهمة رسمية فلماذا الفضول في سؤال كهذا؟ - ابتلعَ كلامه وسكت-.

ولكن بعد أن شارك مع أصدقائه في جلسة سمر كان يلتفت خلسة إلى هذا الشخص ويُمعن النظر فيه مثل قاصٍّ يبحث عن بطل لقصته.

- من يكون هذا؟ حسب ما أعتقد إنه شخص غير اعتيـادي وغـير بسيط كأن تكون له مشكلة عائلية أو شخصية ويريـد مطـاردة أحزانه بتصنيع أحـزانٍ أخـرى، وهـل مـن المحتمـل أنـه يجلـس لوحده في هذه الليالي الأربعة فقط التي رأيته فيها؟

لا، الفكرة التي رسخت في مخيلته يجب تصديقها، كثيرا ما كـان يـدَّعي بـأن لـه خـبرة في علـم الـنفس والفراسـة ويسـتطيع معرفـة الشخص ما أن يمعـن النظـر في وجهـهِ. ولكـن بعـد أن أخفـق عـدة مرات وما قام به كثير من الحسـاد والحاقـدين بالتهليـل والتصـفيق لفشله، تراخى في عمل كهـذا، ولكـن لم يسـتطع تـرك تلـك العـادة، فكثيرا ما كان يحنُّ وتُدَغْدَغُ أحاسيسه لها.

هذا الشخص الجالس في زاوية القاعة، ولليلة الرابعة صار عقدة له، علماً بأنه لم يفصح بذلك لأحد من أصدقائه.

مازال سر هذا الشخص يشغل مخيلته ولهذا كان شريد الفكر لم يستطع مشاركة الجالسين في أحاديثهم حتى قال أحد أصدقائه:

- ماذا يا صديقي؟ لم تمضِ أسبوعا في مغادرة البيت وأنـت هـائم في بعادك عنهم.

بقـيَ صـامتا ولم ينـبس ببنـت شـفة، مـازال يلتفـت بـين الحـين والآخر كأنه مخرج سينمائي يبحث عـن الممثـل الأخـير ويمـلأ الفـراغ ويكمل نصاب ممثليه، قد يكون هذا الشخص الذي يبحث عنـه ولم يصل إلى نتيجة.

ومرة أخرى التفت ناحيته بحجة أنَّهُ ينظر إلى التلفزيون ولكنه أطال فيه النظر ليدقق في وجههِ وإشاراته.

وبعدها هز رأسه كأنه يعلن فشله وعدم درايته ويقول: لم أستطع الوصول إلى أيّ شيء، ما يدور في فكري وخيالي ينطبق عليه ولكن ليكن عكس ذلك.

وكأن صديقه يقرأ أفكاره، قال بدون أن ينظر إلى ذلك الشخص الجالس في تلك الزاوية من القاعة، ولليوم الرابع تراه وهو عَلَمٌ من أعلام هذا النادي. أدرك صديقه بأن له أكثر من سؤال ولكنه هز رأسه قائلا:

- دعك من ذلك. إن له قصة طويلة وهذه القاعة مليئة بالجواسيس، وبدون شك نحن مراقبون، هو كذلك، لا تلح في الاستفسار واصبر، في مكان ما سنرتب موعداً لجلسة خاصة وسنلتقي لتعرف أيَّة مصائب ونكبات قد حلّت بشعبنا، قال هذا الكلام وغيّر الحكاية كلقطة سينمائية إلى حديث آخر، مثل ما قال أرخميدس قافزاً في الهواء وجدتها. شعر بفرح وانتعاش كأنه وجد كنزاً من الذهب. هذا سيكون شاهداً يروي لنا، ولكن من يكون هذا؟ سؤال يتداخل في سؤال، قضى تلك الليلة في سهاد وقلق.

أتته إشارة بأن لا يلتفت تجاهه، ولكنه بقي يتساءل مع نفسه من يكون هذا، فراح يبني فكرة ويهدم أخرى، كان بودِّه أن تنتهي الجلسة عسى أن يستطيع الحصول على معلومة أو معلومتين. ولكن

يبدو أن الأحاديث قد تشتّتت وأن الجلسة ستطول طالما أن هنالك من يهذرون كثيراً في الكلام.

الأحاديث تتجه إلى مسائل عقيمة دون جدوى بالإضافة إلى أنها كانت مملّة، وهو كمن يمسك بجمرة من النار لا يستطيع إطالة الجلوس، عندما تلتفت أنظارهم إلى حركاته يشعر بالخجل ويضع يديه على وجهه ليتصنع الألم، بودّه أن تنتهي الجلسة ويعزف لحن النهاية، وما أن لمح الساعة المعلقة على الجدار وعقاربها تتسابق وتعلن أن الليل في منتصفه قال:

- لنرفع الجلسة، وكأنه كلّم جداراً أصمّاً فما من أحد حرّك ساكناً.

أناس يجترّون كلاماً دون معنى أو يدخلون في جدل غير مجدٍ وأمورٍ تافهة، كالحديث عن أطياب الطعام وغيرها.

• ولكن بالله عليكم أهذا كلام مجالس السياسيين والمدّعين بالثقافة؟ ليعمّ عليكم القحط والجوع. لا أدري بمن أحسن عليَّ وقال لننهي سهرتنا، أسرع نحو الباب، كان يعدّ سؤاله ولكن ما أن انفتح حتى دخل أشخاص تدلُّ أوصافهم على أنهم جواسيس وأزلام النظام فتجرّع كلامه. تحيّن فرصة ركوبه السيارة واقترب منه، عرف بأنه لن يدعه الليلة قبل أن يكشف له شيئا ولكنه أراد أن يختصر في الكلام فقال بعد أن وضع جريدة لإخفاء وجهه خوفاً لئلا يتسرّب كلامه.

- كـان مـع السـلطة والنظـام ولكـن طـردوه بسـببنا وأشـار إلى الأصـدقاء. لم يسـتطع الاسـتمرار في الحـديث ولم يجـد فرصـة لسؤال وودعوه: إلى اللقاء.

* * *

تلك العبارتـان: السـلطة والنظـام ثـم طـردوه، والكـلام السـابق عندما قال كان شاهداً على مآسي شعبنا، تلك الكلمات والجمل غـير المترابطة أصبحت مانشيتاً يـدور في مخيلتـه، شـعر بأنـه توصـل إلى نتيجة، أين ومتى لنلتقي سوية ويسردَ لي بضمير حيٍّ تلك الحكاية.

ولكـن الصـديق الـذي تعهـد بهـذا اللقـاء هـو الخبـير بـالأسرار والاحتفـاظ بهـا، في الحقيقـة هـذا الصـديق قضى نصـف عمـره في التنظيمات الحزبية وهو يسـتطيع أن يـؤمن هـذا اللقـاء والاتصـال ولكن من المطلوب أن يعمـل بسريّة تامـة ولا يكشـف عـن سرٍّ أو حادثة بشكل يفوق التصور فهـو كـالبئر لا يخـرج منـه أي سر وكـل أعماله في سر دفين.

صرح في أخر قول له:

- قبل أن تسافر ستلاقيه. ورفع يده مودّعاً

- جزاك الله خيراً. كان كلامه مجوهرات و ذهب لا يفرّط به.

وظلّ في انتظار ذلـك اللقـاء الموعـود ولكـن مـن المحـزن أنـه لا يستطيع السؤال فكلّما سأله أجابه قائلاً:

- ماذا قلنا بسيطة.

لم تكن الإجابة سوى هذه الكلمات بالرغم أن موعد اللقاء طال ولم يتم ولكن كان يشعر بسعادة لأنه كان متيقّناً بأن اللقاء سيتم وسيصل إلى العديد من الأسرار.

* * *

وبعد أن جرع الكأس الثالث، أغمض عينيه كأنه شعر بجرعة مليئة بالمرارة ومن وثم وضع الكأس الفارغ على المنضدة وقال:

- أستاذ كل هذه الليالي وأنت مشتاقٌ إلى لقائي حتى أقصَّ عليك الحكاية، أنا سأرويها لك من الألف إلى الياء، وتكرم عيناك.

أغمض عينه وهزّ برأسه ومرةً أخرى وضع الكأس الذي أعدّه توّاً في يده وَشَرِبَ ما فيه بتروٍّ بعد ملعقة المزّة.

كان على يقين بأن ما يقوله لا يسجّل لا بالصورة ولا بالصوت لأنه شاهدٌ على حدث عظيم، فالمفروض أن أسجّلها حرفياً في مخيلتي وكياني وأجعل من كل جسمي أذاناً تسمع.

قال:

- ورب من حرّم هذه -بعد أن وضع يديه على القناني التي أمامه وقال- سأروي ما رأيته بأمِّ عيني دون زيادة أو نقصان.

الكلُّ بقي صامتاً لا يتكلم وكأن الطّير على رؤوسهم.

- في ليلة كنت في بيتي أنا وعائلتي غارقين في نوم عميق عندما رنّ جرس الهاتف بصورة متواصلة فاستيقظت زوجتي قبلي ولكن لم ترفع السماعة، وعندما استيقظتُ أنا من النوم توقف عن الرنين ولكنه عاد يرنُّ مرة أخرى، وعلى الطرف الآخر

سمعتُ صوتاً لشخصٍ مرتبك وبدون سلام بعـد أن تعـرّف عـلى صوتي قال:

- بدّل ملابسك وتعال إلى المقر فوراً بدون تأخير.

فقط قال تلك الجملة بشكل آمر رسمي.

وعندما حضرت مقر الحزب وجـدت سـيارات المسـئولين الكبـار مـع حراسـاتهم في السـاحة، يبـدو أن أمـراً جلَـلاً سـيحدث، وبـدون توقف قال أحدهم فليصعد الجميع إلى السيارات.

هذا الحشـد مـن السـيارات وفي هـذه الليلـة الحالكـة: إلى أيـن تتحـرك؟ ولا أحـد يجيبـك، ولكـن أضـواء أرتـال السـيارات بـدأت الواحدة تلو الأخرى، لم تكن سيارة واحدة ولا عشرة ولا عشرين بـل المئات من السيارات.

فكّر مع نفسه إذا كانت سيارات اللاندكروزر هـذه للمسـئولين، فمن هم ركّاب تلك السيارات الباص الكبيرة وأين تقصد؟

القافلة لهـا بدايـة ولـيس لهـا نهايـة، واصـلت المسـير، الليـل في منتصفه، لم يكن بإمكانك أن تجد شخصين يتحادثان، كنت

أودُّ أن تقف القافلة مرة واحدة حتى استطيع أن أسأل إلى أيـن نحن متجهون؟.

تركنا كل المـدن والقـرى ونحـن الآن في الصـحراء نسـير، إذا كنـا نحن في مهمة، فراكبو تلك الباصات الكبيرة أيّة مهمّةٍ لديهم؟.

وقطعنا شوطاً في الصحراء ونحن باتجاه حدود دولة مجاورة.

إذا كان للجنود والضباط مهمّة عسكرية ولكن ما هي مهمتنا ومهمة ركّاب الباصات؟.

هذه الصحراء لم تشهد مثل هذا الحشد من السيارات والناس في كلّ تاريخها عدا في كلّ سنة مرة، ولكن نهاراً جهاراً عندما تعبرها قوافل الحُجّاج في طريقهم لأداء مناسك الحج وتقبيل الحجر الأسود ورجم الشيطان لأنه ارتكب خطيئةً واحدة قبل أكثر من أربعةَ عشر قرنٍ، والذين ارتكبوا الجرائم الكبرى وإبادة الجنس البشري يصبحون أبطالاً تاريخيين.

في تلك الليلة حتى ذئاب الصحراء كانت تعوي بشكلٍ متواصل وكانوا حيارى من أمرٍ سيحدث.

ومرة أخرى أقبل على كأسه وتجرّع جرعة أتَتْ إلى ثمالة الكأس.

ونظّف شفتيه ومطّهما وقال:

- الذي رأيته أدهش وأعجب ممّا أرويه لكم، على امتداد ماتراه عيناك كانت أضواء الشفلات وأصوات محركاتها، تلك الشفلات كانت تواصل في حفر الخنادق، تمتدُّ مسافات طويلة وقد ارتفعت فوقها تلال من الرمال وقبالة هذه التلال جنود يعتمرون خوذات ومدجَّجين بأسلحة أوتوماتيكية وقد أخذوا أماكنهم وأياديهم على الزناد، ولم تكن ترى من يقابلهم سوى تلك التلال الرملية، فعلى مَنْ يصوّبون فوهات بنادقهم؟ إذا كان لا وجود لعدو، ولا نشاهد إنساناً ولا حتى أشباحاً.

الباصات تراصفت بنسقٍ تام، الأبوابُ والشبابيك موصدة، تحرّكت القافلة قليلاً.

لأول مرة سمعت صراخاً وهتافاً من إحدى الباصات، الجميع استداروا لمعرفة ما يحدث، الواقف بقربي وكان مثلي يلبس الزيتوني، يبدو أنه مثلي وتائه الفكر، قال باندهاش:

- ما هذا؟

إنه مثلي بل أكثر، فاتحاً فاهُ ويشير بيديه، ماذا يحدث؟

ولكنه لم يستطع صبراً فراح يذهب شمالاً وجنوباً ويسأل الآخرين ويبدو أنه لم يلقَ جواباً على سؤاله.

كُشف المخفي والمستور وتم إجابة السؤال بعد أن تعالى الصراخ والعويل والهتاف في أكثر من مكان.

ضابط كان يحمل بيده مكبرة الصوت ويأمر جنوده بالتهيؤ.

وبعد ذلك قرأ المرسوم الجمهوري بإعدام هؤلاء وأشارَ إلى إمضاء السيد الرئيس على المرسوم.

وشيئاً فشيئاً كان يفتح أبواب السيارات ويخرج راكبوها معصوبي الأعين ومُكبّلي الأيدي، يصفّونهم على التلال فوق الخنادق.

أخذ الضابط مكانه ومُكبّرة صوت في يديه، أعلن الإيعاز بالتهيؤ وأمر بالرمي الجماعي مرتين، ومعصوبي الأعين كانوا يتساقطون على الخنادق مثل سقوط ثمار التوت وكانت دمائهم تسيل على التلال، وبعد ذلك تتحرك الشفلات من الجهة الأخرى لطمر الخندق بالتراب.

قالوا لنا بأنهم إيرانيـون ولكـن أحـداً لم يصـدّق وأصـبحت تلـك الأقاويل مثار سخرية الجميع، حيث أن ملابسهم كشـفت الحقيقـة وأماطت اللثام.

وأكثر ماكشف حقيقتهم وفضح أقوالهم كانوا يصيحون بلغـتهم ويـدعون الله ورسـوله لينـتقم مـن الظـالمين عـلى ظلمهـم ولهـذا لم يستطيعوا إسدال الستار على مسرحيتهم وكذب أقوالهم.

ولكن المنظر والموقف الذي لا أنساه كان سبباً لـدخولي السـجن وبعدها أوصلني إلى هذه الحالة التي أنا فيها.

كانت الكأس أمامه، ولكنه يبحـث عنهـا ولا يراهـا، رأسـه يهتـز وكأنه قد أصيب بالصرع وأخـذ يرتجـف مثـل شـجرة تتلاعـب بهـا الريح.

كأنه عـالم بـأن لديـه رسـالة وشـهادة، يريـد إيصـالها إلى أقربـاء الضحايا، وليس هذا فقط بـل يرغـب أن يـبري ذمّتـه مـن أمّـةٍ قـد ظُلمت، ولكنه يعرف يقيناً لو تسربت تلـك الأخبـار سـيكون عقابـه شديداً من قِبَلِ النظام ويلحق بهم.

عندما كنت أمعن النظر في تقاسيم وجهه، كنتُ مُتيَـقِّناً أنَّهُ قـد شاهد تراجيديا مخيفة، والذي شاهده أكثر رعباً مما قالـه دانتـي في (الجحيم) وأكثر دماراً ممّا في لوحة (جيرونيكا) التي رسمها بيكاسـو، ويقفان أمامه باستحياء.

إذا كان دانتي قد اقتبس من مصادر وكتـب وأضـاف إليهـا مـن خياله وأحلامه حتى كتب رائعته، فهذا قد شاهد بالعين المجردة.

كنت أنظر في عينيه ووجهه وكانت عيناهُ قد احمرّتا وتغير صوته إلى بحّة وبعدها وضع يديه على عينيه وأراد أن لا يُري أحداً دموعه المنهمرة ورغب أن يحبسها بين المآقي والرموش ولكنه تنفس الصعداء وقال:

- كانتْ لديّ رغبة أن أرى كل أحداث هذه التراجيديا، لم أعرف ما هو السبب الذي دفعني إلى ذلك وكان باستطاعتي التخفّي في الظلام.

اعتدل في مكانه ومضى في قوله:

- كنت واقفاً أمام التلّ الرملي وشيئاً فشيئاً اقتربت منه والعديد من السيارات كانت واقفة على الطرف الأخر من التل كانوا يخرجونهم من السيارات على تلك السواتر وهم جمعيهم معصوبي الأعين ومكتوفي الأيدي، وبعد أن يتم صفهم تُفتح عليهم نيران جميع البنادق والرشاشات دفعة واحدة، كان صوت الاستغاثة، الصراخ، الدعاء، والهتاف تصل إلى عرش الجلالة ودقائق فيتساقطون وتتهاوى أجسادهم في الخنادق، هذا المشهد الذي فوق التل وتساقط الشهداء في الخندق تكرّر أكثر من مرة.

ولكن المشهد الذي لن أنساه طالما أعيش في هذه الدنيا، وعندها وضع يديه على وجهه وتنفس الصّعداء وقال:

- الشيء العجب الذي رأيته طفلٌ قد تقول شاب مراهق ولكن الطفولة أقرب إليه جلب انتباهي كأني أعرفه، لا أدري، إن لونه وصورة وجهه لم تكن غريبة عني.

محيّاه تشبه حسين ابنـي، لم يكـن معصـوب العينـين ولا مكبّـل اليدين أحسست بشعور روحاني نحوه ووددت

أن أمنحه كل عواطفي الأبوية الدافقة تجاه ابني.

كان ينظر إلى الخندق ويلتفت يميناً ويساراً، لم يبدُ عليه الخوف والقلق وكأنه في نزهة.

- يا الهي ساعدني كي أستطيع مساعدة هذا الطفل الـبريء وكنـت أتمتم مع نفسي يـا أبـا عبـد الله الحسـين نـذر لمرقـدك عـليّ لـو استطعت إنقاذ هذا الطفل، أردت التقـرب منـه عسى أن أجـد شخصا آخر مثلي يعطف عليه.

إني أراه بوضوح، ليس ببعيد عني يلتفـت حـول نفسـه، وأعينـه مفتوحة.

أضواء بروجكترات تكشـف وجهـه بوضـوح تـام، جـدائل شـعره تلمع وتضيء بين الكسـتناني والأصـفر تـتراقص عـلى صـدغيه، طبعـا عيناه زرقاوان كسماء موطنه.

كأنه لا يعرف أنه في طريقه إلى الجحيم، ولا يعـرف أن مـا بقـيَ من عمره دقائق ولحظات.

الضابط الذي كان بيده المكبرة أمـر بـالرمي وكـان يـدور حـول الخنادق ويحثُّ على مواصلة الرمي، هـا هـو سيصـل هنـا وسـيأمر بـالرمي مـا أن يـتم قـراءة المرسـوم حتـى تهـدر الرشاشـات بشـكل جماعي بالرمي ولا يستطيع حتى ملكوت السماء من استلام الأرواح بهذه السرعة وبدفعة واحدة.

هذا الطفل بقيَ يتحرك ويرى تلك المناظر البشعة، وددتُ أن أعطيه إشارة ليطرح نفسه أرضاً قبل أن تأتيه الطلقات.

يا الهي أي وطن دموي وحشيٍّ نعيش فيه؟ ما ذنب هذا الطفل كأنه نبعة ريحان؟ أبهذه البساطة يكتب له الموت بطلقات المتوحشين.

- يا إلهي هذه الجريمة وهذا الظلم يمارسونه أمامك وبعلمك، أيَّةُ دولة كفر وظلم هذه؟

في هذه الصحراء التي لم يُسمع فيها إلا أصوات ذئاب وضباع جائعة، اليوم أصبحت ساحة لزهق الأرواح، كيف يعيش الإنسان في وطنٍ حصادُ الأرواح فيه أسهل من انتعال حذاء.

هزَّ رأسه وأغمض عينيه مثل عصفورة تنفض عنها بلل المطر، مرة أخرى ارتشف كأسه وكأنه وصل بالتراجيديا والحكاية إلى قِمّتها. ما أن شاهده الضابط الذي يحمل المكبّرة ويقرأ مرسوم الموت الجمهوري يظهر تارة أخرى...... تبّاً له هل تغوّطته الكلاب؟ سمعت صوت تبديل مخازن العتاد وأقسام البنادق والرشاشات، فقبل أن يبدأ الضابط بالإيعاز، ها هي اللحظات الأخيرة التي يجب أن آخذ فيها موقفاً أمام حياة هذا الطفل، يا الهي أستغيث بك ماذا أفعل؟ ومع صوت الطلقة الأولى، صرختُ بأعلى صوتٍ وبكل ما أملك من قوة !!!.

- هيا... هيا..... سيقتلونك.... سيقتلونك !!!!!

وأنا أرفع ذراعي وتقدمت خطواتٍ نحوه، شاهدتُ الكلّ سقطوا من التل الرملي، وسقط هو أيضاً لكنه نهضَ مرّةً أخرى.

اقترب منه أحد الجنود وفوهة بندقيّته فوق رأسه، الضابط أمر بالرمي ولكن الجندي، بقي واقفاً كالصّنم وكأنه مزروع ولم أشاهد ناراً تخرج من فوهة بندقيته.

ضرب الضابط برجليه إلى أعلى وشتم بكلمات بذيئة، وللمرة الأخيرة صرخت بأعلى صوتي وبكل ما أملك من قوة:

- لا تدعوه يموت!!!!.

وبعد ذلك لم أعرف ماذا حدث هل قُتل الطفل أم لا.

وعندما فتحت عيني وجدت نفسي وأنا على سرير، وقد وضع على يدي —سيلان- وممرضة أمام سريري، وعندما سألتها:

- أين أنا ؟ تركتني بعد أن أقفلت الباب بالمفتاح وبعد ذلك شاعَ الخبر في المدينة، طردوني واتهمت بالجبن وبعد السجن، وصلت إلى المكان الذي تشاهدون فيها كل ليلة.

الله أنقذ إسماعيل من موتٍ محقّق لا أدري هل تكررت المعجزة تارةً أخرى وهل أنقذ هذا الشاب من الموت؟. كقائد مايسترو على لحن جنائزي دموي حزين كان يرقص ويذرف الدموع، وبعدها صدح بأبوذيّة يغنّيها أبناء الأهوار وشاركناه الغناء والتي تقول:

- أمّاه... أمّاه كل هؤلاء الشهداء من الأطفال والشباب والشيوخ استشهدوا بدون أكفان ودون صلاة وتلقين.

* القصة ضمن المجموعة القصصية " بەرپەرەکێ وندا ژیاننامە سەلیمێ ئەسمەرێ - الصفحة المنسية من سيرة سليم اسمر التي صدرت عام ٢٠٠٤"

مشروع استشهاد[1]

قصة و ترجمة: أنور محمد طاهر

عِبْرَ سنوات نضاله كان يراود ذهنه كل مرة، ماذا لو استشهد...؟ ماذا يفعلون؟ من يزور قبره؟ مَنْ يحضر عزاءه؟ وبعد كل ذلك ماذا سيحدث؟ الحياة ستبقى اعتيادية والكرة الأرضية ستدور كالمعتاد.

وعندما كانت تلك الأفكار تداعب مخيلته، كان يصاب باندهاش ومن ثم يرتعش وبعدها ابتسامة تبدّد تلك الأفكار.

بداية تلك الفكرة كيف ولدت لم يحتاج إلى الكثير من التفكير لمعرفة جذور هذه الفكرة.

بالطبع كحكمة توارثها عن الآباء والأجداد وهي أن تسير في طريق اللاعودة، لأنك إن عدتَ ستكون عالي الهمة والجبين.

أسوأ مصير أختاره (ميرزا محمد).. ولكنه نال أحسن المكاسب. فإذا عدت فإنَّك مكسبُ السنة وإنْ لَمْ تَعُدْ، فهذه خسارة السنة.

كان يتذكّر منذ طفولته كأنها بقيت محفورة في مخيلته بأن لكلِّ عملٍ ثمنه وثمن الحرية هو القرابين. و كل الراحلين سيطويهم النسيان والعدم إلاّ الشهيد سيبقى خالداً.

---

[1] نشرت ضمن المجموعة القصصية (محاولة لوضع بانوراما ليوم كسفت فيه الشمس) والتي صدرت عام ١٩٩٦

في طفولته كانت كلمات كوردستان والبيشمركة والبارزاني عندما كانت تصدح في الاحتفالات والندوات، كان يقشعرُّ بدنه وتنتصب شعيرات جسمه.

وعندما كان يسمع قصص النضال.. كانت صور البيشمركة تتراقص أمام عينيه. كيف يهاجمون المحتلّين؟.. كان يشعر بضيق التنفس ويتمنى أن يشاركهم في ذلك. وعندما يصرح بأمانيه للآخرين كانوا يقولون:

- الذين هم أكبر منك سِنّاً برعوا فيه حتى تذهب أنت لِتُكْمِلَ مشوارهم.

وعندما يريد آخر أنْ يُجْبِرَ خواطره كان يقول له.

- ما زلت طفلاً .. سيأتي يومك.

* * *

الظلم والاعتداء اللذان مارسهما المحتلّون ضدّنا كافيان لكي تكون التضحية والدفاع عن هذا التراب شيئاً بديهياً ومقدساً، كل من ابتلى بالهوى والعشق في قراءة تاريخ هذه الأمة سيكون متأثرا بهذه الفكرة.

في الهجرة المليونية نحو الحدود، تبلورت هذه الفكرة لديه بوضوح أكثر، وكان يعتبر الهجرة بل الهرب شيئاً من العيب والعار.

- لماذا ننهزم؟ .. هات لي سبباً واحداً.. مرة أخرى سننهزم لماذا الهزيمة صِنْوَةٌ لنا؟ لماذا؟ لماذا؟

عندما كان يتلفظ بهذه الكلمات، لَمْ يتلفظها بشكلها الاعتيادي ولكن كانت عيناه تحمران في أعماق محجريهما وتتفتح الشرايين والأوردة في رقبته ويتطايرُ لعابه يتكلم بيديه ورجليه.

وعندما يقول له أحد الحاضرين.

- إذا خرج كل هؤلاء المسلّحين من المدينة وبقيت وحدك فكن (عه ميَ كوزي)[1] وجابهِ القوات الحكومية... وستدمرها جميعاً!

كان يبقى صامتاً يطأطئ رأسه سارحاً بأفكاره الشاردة.

- نعم إذا اكتظت الشوارع بقوات العدو فماذا تفعل...؟
- حسناً ستحارب عشر دقائق أو أقل ثم ماذا تفعل بعدها؟

* * *

الاستشهاد ... الاستشهاد هذه الكلمة عندما كان يردّدها مع نفسه كانت مائة من الأصوات العذبة تنشدها بلحن وموسيقى حزينة مردّدة: الاستشهاد .. الاستشهاد. وكانت الوديان الوهاد تردد أيضاً تلك الأصوات، الشهيد.. الشهيد..

عندما تدخل قوات العدو المدينة سآخذ بندقيتي وفي عملية مشابهة (لساموراي اليابان) سوف انتحر وكعابدٍ صوفيٍّ في معبده أمارس هذا الانتحار.

- وستكون هذه الحالة انتحاراً وليست بشهادة.
- المعنى إنها جبن وأعلى مراحل الجبن.

---

[1] عمّي كوزي: شخصية بطولية من التراث الشعبي الكردي.

- كلا إنّها الشهادة لكونها أقوى رد ليس على الأعداء وحدهم، بل على الذين يدعون الفروسية في أيّام السلم والأعياد واليوم أيضاً.
- ينهزمون كالسلوقي ... كان يدمدم بكلمات غير مفهومة كان يتفوه بكلمات ويغمط أخرى.. كفى، دعك من المشاكل وهيّا لنذهب مع العوام إلى الشام.
- كيف ننهزم...؟

كان غارقاً في بطون التاريخ ويقلّب صفحاته باحثاً فيجد فرساناً مدججين بالسيوف والرماح وهم يهاجمون كقطيع من الذئاب المفترسة زاحفين نحو كوردستان.

وشعبنا ينسحب نحو الجبال، وذلك ابتداء من حملة زينفون مارّاً بالعرب والترك والفرس وهولاكو والانكليز وحتى فاشست اليوم، كالجراد يزحفون ويقضون على الأخضر ليحوّلوا بلادنا إلى أرض جرداء.

لأنها معركة غير متكافئة وغير متوازنة تارة يأتون على الجياد. وبالرماح والسيوف وأخرى ببنادق الرشوكي والانكليزي وأخرى بالمدافع والطائرات، حتى وصلت إلى الكيمياوي.

ما أسرده ليس هو بالذرائع، ولكن كانت الأسلحة التي يستعملونها لا تفوق أسلحتنا بعشرات المرات بل وأكثر، إن كان لدينا سلاح!

و ما نسميه بالخوف والجبن... لا ليس ذلك، إنهما الحكاية والتحصن من الإبادة لكي نواصل الحياة.

هزّ رأسه وأمعن النظر في الجبال.. وقال لنفسه هامساً:

- صحيح إنّها وحدها، ولا أصدقاء. ابتسم وقال مرة أخرى:

- ولكنهم أصدقاء جيدون.

تبدّدت أفكاره حول الشهادة عندما كان يحلـم وكانـت تـتراقص أمام عينيه صورته وعندما يستشهد سيصبح خبراً يتناقله النـاس لأن هذه الشهادة هي احتجاج ضد محتلي المدينة.

كما قالَ له أحدهم.

- كلا سـيقولون بأنـه لم يرغـب في الهجـرة والبقـاء مـع الأعـداء.. ويضيفون شيئاً آخر من عندهم ويمثلون دور المحامي المضاد.

هذا القول أثَّرَ فيه كثيراً، أصبح حائراً وشارد الفكر، كُلَّـمَا يخطـو خطوة يتساءل أيَّ مصيرٍ سيختار؟

وعندما وصلَ إلى الوادي انفجرت القنبلـة الرابعـة مـن القصـف المـدفعي بعـد أنْ امـتلأت منـاخيره بـدخان البـارود، كُلُّهُـمْ صـاحوا بصوت واحـد(الله، الله)وهلَّلـوا وحمـدوا الله لخلاصـهم مـن المـوت، شعر هو بشيءٍ من الحياء، كان يبحـث عـن الشـهادة والآن يتمنـى النجاة!

تلك الفكرة ظلت تراوده ... جيد إذا استشهد ماذا كان يحـدث؟ رقم جديد يضاف إلى قائمة الشهداء.

- ماذا تعني...؟

بعضهم سيجعلون من شهادتك خبزاً وطعاماً لكلامهم.

- بعضهم سيجعلون منها لباناً يجترونه سيدبجون مقالات بأنهم كانوا أقرب المقربين والمخلصين لك!

وهذا من أجل التملق في المجالس والاجتماعات، ولكن لا أحدَ يسألُ عن عائلته.

إذا نهضَ الشهداء وشاهدوا ما حدث من بعدهم ماذا يفعلون؟

كيف ينظرون إلى الأفكار والمبادئ التي استشهدوا من أجلها وقد أصبحوا بعيدين عنها كبعد الأرض عن السماء.

سوف لا يتأخرون كثيراً بل سيكونون في عجالة للعودة إلى لحودهم ليرتاحوا من العذاب والألم.

لأن الأقربين والمخلصين لذكرى الشهداء يذرفون الدموع مدراراً ويجعلونها يوم حشر ونشر لتمرير سرقاتهم.

أما عن أوضاع عائلاتهم الجائعة، فهم يقفوون على هذه المواضيع ويتجاوزونها كأبطال السيرك.

- يا لهم من أبطال يجدون مائة حيلة لتغطية سرقاتهم كالسحرة باستطاعتهم تنويم الآخرين لإغفالهم عن فشلهم وأعمالهم سيئة الصيت، لذا يعيدون اسطوانة الشهداء ويجترّون هذا اللبان ليل نهار.

إذا تحدثنا عن فشلهم وأعمالهم السيئة، حدّثونا عن الشهداء وتضحياتهم، وإذا تحدث أحدهم عن النواقص أو الهجرة بأنها عمل غير لائق وهزيمة.

راحوا يتحدثون عن تاريخ نضالهم كيف كانوا رجالاً شجعاناً وصناديد طوال هذه السنوات، وإذا سألتهم كيف تركتم ساحات المعركة والجبهات الأمامية؟ كل واحد يقول: كنت آخر مَنْ ترَكَ الجبهة!!

فإذا كان كل ذلك صحيحاً، فلماذا خَلَت الجبهة؟

كثيراً كانوا يقولون كفى ما سقط لنا من شهداء وإن قلوبنا قد أُدميت حزناً على الذين استشهدوا فهل تريدون المزيد؟

لا أيها الأمير العظيم إننا ننهزم ونقدم الشهداء أيضاً.

أصبح يائساً من مواصلة الكلام معهم، إنهم منهمكون في إرسال السيارات إلى الجانب الآخر من الحدود و ليس لهم أي عمل آخر.

المصائب التي انزلوها بحق الشعب ما كانت قليلة.

عندها شاهد بأنهم يتسابقون مع الآخرين في الهزيمة من الأجدر أن ننفض عنهم الأيادي.

الظاهر ما يقال عن التاريخ كله أعذار وحجج، نحن لماذا ننهزم؟ ومقابل من؟ كانوا قبل خمسة عشر يوماً ينهزمون أمامنا بعد أنْ هُزِمُوا مقابل جيش آخر ونحن ننهزم أمامهم هيّا... وقل كيف تستطيع تفسير ذلك؟

أي توازن تتحدث عنه، جيش مهزوم بين حافة الحياة والموت دعك من هذه الفلسفة والتحاليل.

- من الآن أصبحت أشكُّ في صفحات التاريخ كلها، يجب عليَّ مراجعتها في قراءة أخرى، وعندما أجد فيها مستجداً، سوف أخبرك.

عندما قال هذا الكلام، أطلق ضحكة وباستهزاء قال:

- لا لم أجد ذلك!!!!

كان يتمنى في هذا الوقت لو اجتمع الشعب الكوردي كله من سلسلة جبال طوروس إلى ضفاف الخليج في ساحة ويقوم هو بإلقاء خطبة عليهم وليتجرعوا السُّمَّ الزُّعَاف وليكشف لهم ما هو مخفي، وما وراء الكواليس.

وبعد ذلك ستصبح شهادتي أروع حالات الاستشهاد.

في طفولته كان يتصور بأن الشهيد الملتف بكفنه الناصع البياض يرتفع نحو الجبال إلى أعلى قمة في كوردستان، وهو جبل آرارات لكونه قبلة الشهداء فالواجب زيارته ومن هناك يصعد إلى السماء. كان يتذكر مجالس المثقفين والذين يعتبرون أنفسهم سياسيين كانوا يتهمون التاريخ والاقدار والسياسة والدولة، وكل يبذر بيدره حسبما يهوى، كثيراً ما كان يقول إنَّ التاريخ قد أغمط حقوقنا.

- لم تستطيعوا فعل شيء، فلماذا تلقون بأخطائكم على عاتق التاريخ.

عندما كان يسمع هذه الكلمات كان يقدح كجمرة من النار وكقطّة متوحّشة يهاجم القائلين.

- يا أبي ... يا بنيّ اليومَ، اليوم مات، أو الأمس، نحن اليوم.. لنعمل اليوم شيئاً وبعد ذلك لِنصبُّ لعناتنا على الماضي والتاريخ.

نلقي بانكساراتنا وهفواتنا على عاتق الآخرين.. أيُّ ضمير هذا؟ لنرحم موتانا قليلاً، كان هناك اثنان يرفعان أصابعَ الاحتجاج ويقولان.

- كلا ... لا نؤيد ذلك وإن التاريخ ليس مقبرة مقدسة لا يجوز لأحد التقرب من سورها.
- لا ... لا يجب أن لا نتخوف من النقد والبحث والمساءلة: يجب أنْ نُشَخِّصَ العيوب والنواقص وأن نغربل كل تاريخنا لنعرف ما يبقى وما يسقط من الغربال.. وليس هذا بالنقص.
- الشعوب الحية الناهضة هي تلك الشعوب التي تفتح الأبواب والشبابيك وتمعن في مسيرتها بمئات المرايا لنعرف العلل والنواقص.

وبعكس الشعوب الحية، الشعوب الميتة، والتي تركن إلى السكون وتتهيب من الكلمة والجمل وكل الكلام يصبح أمامها أشباحاً تتراقص وكأنها فرسان مدججون بالسلاح.

يتخوفون من الحقائق فيحملون أخطاءهم.. إن هذه الأمم إنْ لم تكن بالميتة فإنَّها حتماً تتجه نحو الموت عاجلاً أو آجلاً.

هذا المجلس ومناقشته الحامية، لمْ يَنْفَضَّ منذ عدة أيام والحديث كله مُنْصَّبٌ في دائرة مغلقة وبمصطلحات محددة

تقتصر على الشعب.. والمستقبل.. والقادة والأبطال وشعب كقطيع الأغنام من دون راعٍ، ظلّوا يتداولون ويجترّون هذه الكلمات حتى ملَّ منها، هو وأصدقاؤه، تلك المناقشات وتكرار أقوال تشبه اسطوانةً لا تكفّ عن الدوران.

عندما كان هناك حزب يخلق أعذاراً وحججاً واهية لعدم الإقدام على أيّة مجابهة لماذا؟ لأنهم مشدودون إلى الماضي، لذا لا يستطيعون العبور إلى المستقبل.

المرتفع الذي هم فيه سيصبح مقبرة لهم. المدينة أخليت من سكانها. المدافع لم تسكت طوال الليل كله، اللهم إلاّ دقائق استراح فيها المدفعيّون. قال الناس أنَّها رحمة نزلت عليهم من السماء لكي يستطيعوا الخروج من ملاجئهم ويأخذوا أطفالهم إلى الجبال لأن القنابل تنهال على المدينة كالمطر، كان من الشجاعة أن يجازف احد بوضع أغطيته في السيارة.

عندما انبلج الصبح كان قرص الشمس قد اختفى بين دخان المدافع ولم يرتفع كثيراً، يبدو أنها كانت على حياء من أن تكون شاهدة على ما يحصل من هجوم وحشي وإبادة يتعرض لها الأطفال والشيوخ في المدينة.

نعم كان مخزياً ونحن نرى الذين كانوا متمنطقين بالرصاص منشغلين في جبهة سرقة السيارات والشفلات ولم يتخلّوا عنها وكانوا يجاهدون من أجلِ تحويلها إلى خارج الحدود، هذا الشعب ماضٍ في ضياعه إلى ضياعٍ آخر.

يظهر أنَّ النظام كان يعرفهم جيداً، لذا كان يجرؤ على فعل كل هذا بدون خوف والأطفال كانوا يهربون مشياً وهم بالسيارات فكيف تكونون قادة لأولئك؟ إذا كنتم قادة لأولئك، إذا كنتم تنهزمون في يوم كهذا، ولا تبالون؟ لم يبق أحدٌ إلا وشمَّرَ أردانه.

الذين يمتلكون السيارت هربوا بجلودهم وواصلوا الطريق كالنمل يدبون في الأرض، إلى أين المسير؟

- كلا كان لهم قيادة، ولكن القيادات تركتهم في غفلة لدى الشعوب، وقادتهم يقومون بألف محاولة من أجل أن يتكرّم مواطنوهم كل أربع أو خمس سنوات إلى صناديق الاقتراع ويُدلي بصوته لصالحهم.

هذا الشعب ينقاد إليكم ويبدي استعداده للتضحية من أجلكم كله من اجل أن تقودوه واليوم تتركونه في الضياع.

أصوات حركات سياراتهم في تسابق كأنهم في سباق رالي السيارات.

- اذهبوا أين ما تذهبون عسى أنْ نلقاكم لا في الجنة ولا في النار.

* * *

ألمْ يسقط ماء وجوهكم بالأمس كنتم قادة لنا واليوم تتركوننا، كانت زخّات المطر تتساقط بانفراد وكأنَّ السماء لا تُحَبِّذُ أن تحملهم مشقة أخرى حتى أنَّ البرد فقد قسوتَه التي كنا نهاب منها كثيراَ. أصوات مدافع العدو بدأت تخفت.

أول شهيد سقط في هذا الطريق قد سقط بعد عدة كيلـومترات من بداية مسيرة الهجرة المليونية وبسرعة متناهية حفروا له قـبراً لا يليق به. (رحمه الله) أصحاب الغيرة لـولاهم لبقـيَ جثمانـه طعامـاً للغربان والوحوش هذا كـان الشـهيد الأول، كـم مـن أعـداد أخـرى ستضاف إليه حتى نهاية هذه المسيرة.

أيها الشهيد ذو الرقم واحد، من تكون؟ أنا لا أعرفك!

- ما اسمك؟ أية أمنيات حملتها إلى لحدك؟ لم تعرف بأننا سـنقيم أطول مقبرة في العالم سنواصل المسيرة ونقدم الشهداء.

في الأنفال السوداء تمنـى أنْ يكـون فاقـد البصـيرة حتـى لا يـرى مزيـداً مـن المصـائب والآلام في الهجـرة المليونيـة وضـع مشرـوعاً للاستشهاد.

و المشروع....!!!!

مقهى العميان[1]

ترجمة: عبدالكريم يحيى الزيباري

مقهى في وسط المدينة يقصده هؤلاء العميان صُبحَ مَساء. كيف يأتي هؤلاء العميان إلى هنا؟

حين ينظر المرءُ إلى هؤلاء العميان يقول في نفسه:

- كيف لهذا العدد الكبير من العميان أن يكـون موجـوداً دون أن يشعر به أحدنا؟

هذا السؤال كثير التداول بصيغ مختلفة في الطرح والإجابة.

هؤلاء العميان يتعارفون مـع بعضـهم عـن طريـق السـمع، وفي إحدى الطرقات بعيداً عن المقهى، صَدَمَ أحدهم كتف الآخر فقـال له: انتبه لنفسك يا هذا...

فقال الأعمى الآخر وكان قريبا: مَنْ ينتبه لنفسه أنت أم هو؟

وحين تكلم ناداه الآخر: ها... إسماعيل إلى أين أنت ذاهب؟

فردَّ بفظاظة: سأذهب إلى القصر الجمهوري!! طبعاً سأذهب إلى مقهانا! وإلى أين سأذهب! وهل يحتاج الأمر استفهاماً أيها الغبي؟

اقتربا من بعضهما كتفاً لكتـف، سـارا معـاً بعصا واحـدة نحـو المقهى.

---

[1] نُشِرَتْ في مجلة بيف العدد ٤٣ سنة ٢٠٠٧.

قليلٌ من هؤلاء العميان كانوا يأتون مشياً على الأقدام، أكثرهم يملك سيارات فارهة، ولديهم سواق وحرس يفتحون لهم الأبواب أيضاً.

بعد صلاة المغرب يتفرقون، كلُّ اثنين أو ثلاثة يذهبون نحو جهةٍ معينة، مسجد أو ماخور أو موقف بائعات الهوى الرخيصات.

دونهم تبقى المقهى صامتة كطاحونة توقفت فجأة، اثنان أو ثلاثة فقط يبقون في المقهى، لا أحد يعرف حول ماذا يتهامسون.

هذه صورة خارجية للمقهى وهي لا تحتاج إلى معرفة كبيرة للإطلاع عليها.

نعم هذا كان الشكل الخارجي للمقهى، كمقهى عادي يرتاده بعض العميان لقضاء أوقاتهم، وقليل من الناس يعلمون أنَّ في هذه المقهى تجري كبرى الصفقات التجارية، وَتُبْرَمُ العقود لبناء العمارات وبيع العقارات والدواء وحتى الخمور...الخ.

كانت البضائع وكلُّ شيءٍ آخر قد يخطر ببالك أو لا يخطر، تُباع وتُشترى، وتتداولها الأيدي والحسابات وهي لا زالت تمخرُ البحار والمحيطات. ولو أنَّ شخصاً اطَّلع على هذه الصفقات عن قرب لانتصبَ شعرُ رأسه واقشعرَّ جلده من أثر الدهشة والعجب، ولانْحَبَسَ لسانه إلا عن النطق باسم الجلالة: الله. ولا شيء غير ذلك.

نشرَ أحد الصحفيين الأجانب تقريراً عن هذه المقهى، وكتب بالعنوان العريض: "هذه المقهى هي التي تحكم هذه المدينة" وقبل ترجمة هذا التقرير وبعد ترجمته، اعتقد الناس السطحيون

بأنَّ الأمر مجرد طُرفة من مفهوم المخالفة، بقصد الاستهزاء بشعبنا، وإلاّ فكيف يقول هذا ما لم يكن غبيّا أو ساذجاً؟ والمهووسون بنظرية المؤامرة كانوا يقولون:

هذا التقرير سمٌّ قاتل، وتمَّ إعداده في مطابخ أجهزة مخابرات الدول المجاورة لتحطيم معنويات شعبنا وإلاّ فلماذا صيغَ المانشيت بهذا الأسلوب..بل هي مؤامرة أخرى ضد شعبنا كي يفقد ثقته بقيادته الحكيمة...

لماذا يبحثون الأمر بهذه الصورة؟ هؤلاء العميان الملاعين يحكموننا؟

كلاّ وألف كلاّ، ووراءَ الأَكْمَةِ ما وراءها، وتحت هذا الغطاء يجري الإعداد لمؤامرات خطيرة وما هذه إلاّ البداية فحسب. وإنَّ غداً لناظرِه قريب.

مسح بالسبابة والإبهام حنكهُ من الأعلى إلى الأسفل وهزَّ رأسه...كلُّ هذا الكلام نطقَ به عزير عزيز، الذي قضى سنوات طويلة خلف القضبان، لميوله اليسارية، حتى لو أنَّ ذبابة طارت كان سيتهم الامبريالية والرأسمالية ويسوق مئات الحجج والبراهين. كان لديه أدواته الثابتة في القياس، يستخدمها في الأمور كافة، ويقول: "النظرية العلمية لا تحتمل الخطأ" أو يقول:

- أوف، تعالوا اسألوا عمكم، أنا أعرف ماذا يخطط لنا أولاد الخنازير، أنا أعلم بأيِّ روثٍ يؤمنون.

- يقول هذا وكأنَّه لا يعلم أو قد تناسى بأنَّ قيادات اليساريين الذين يتبعهم كل هذه السنوات لا يختلفون كثيراً...قال شابٌ مختص في علم الاقتصاد:

- عمّو... عزير ... إنَّ غرض هؤلاء الصحفيين من التقرير..أن يكشفوا حقيقة أن هؤلاء العميان ليسوا علماء اقتصاد وليست لديهم خبرات اقتصادية..ورغم ذلك فإنَّهم يديرون البلاد اقتصادياً، ومن يدير الاقتصاد تكون السياسة رهن يديه، لأنَّه في عالم اليوم الاقتصاد ورأس المال يسبقان السياسة وهذه هي النتيجة النهائية.

ورغم أن الشاب قال كلامه باحترامٍ كبير وتواضعٍ جم، ومهَّدَ لكلامه بمدح العم عزير وكيف أنَّه ذو باعٍ في السياسة وله تجارب طويلة، ردَّ عليه عزير بفظاظة وعنف لِيُخْرِسَ صوت الشاب لأنَّه يعلم بأنَّ رأسه لن تحتمل هذا الصداع الذي يصاحب المصطلحات الأجنبية والنظريات التي يوردها الشاب ويجهلها عزير جهلاً تاماً. ولمَّا عَلِمَ أنَّ زمام الأمور سيخرج من يده قال:

- اذهب بعيداً عمّو..فلا زلت صغيراً حتى أنَّك لا تميز بين عضوك والجزرة. فلا تقرأ لي الجنجلوتية وتصدّع بها رأسي.

ضحك جميع الحاضرين، وخاصةً الذين كانوا يحسدون هذا الشاب، وجدوا فرصةً سانحة للنيل منه فوصلت قهقهاتهم عنان السماء...

قصة مقهى العميان خرجت من الأزقة الضيقة للمدينة لتصير حديث الساعة في شاشات التلفاز وتناولتها الفضائيات، وأظهرت للعالم الخارجي أنّها مؤسسة خطيرة تحكم هذه البلاد.

مقهى العميان لم يكن كأيٍّ مقهى على سطحِ الأرض، بحيث يُسْمَحْ لكلٍّ من هبَّ ودبَّ بارتيادها والدخول إليها، والقليل من أبناء هذه المدينة كانوا قد رأوها من الداخل.

هذا المقهى لم يكن يشبهه مقهى آخر، فقط بالاسم كان مقهى، ولا يعكس أيَّ شيء آخر على أنّه مقهى.

الكثير وصفوا المقهى بأنّه كسراديب المافيا وسجونها، وأقبية الفلاسفة، أو مقرّات للأحزاب السياسية والمتطرفة مع اختلاف بسيط في الديكور الحديث والأنيق للمقهى.

قيل مرة لعلو بن زليخوي[1]: اذهب واسأل عن أحدهم.

فامتعضَ وجه علو وقال: ضعوا على ظهري كيسا من ذات الخطوط الحمراء[2] واملئوه بالزبيب وقولوا لي: اصعد به قمة جبل كاره[3] ولا تقولوا لي اذهب إلى مقهى الملاعين.

---

[1] يقصد به علي بن زليخة. وفي اللغة الشعبية الدارجة يحرّفون بعض الأسماء، وخاصةً إذا كانت لآل البيت والصحابة حبّاً بهم وإكراماً لذكراهم.

[2] الكيس ذو الخط الأحمر كيس كبير يتسع لأكثر من ٥٠ كغم وربما أكثر من طحين الوجبة والمصطلح الشعبي كان مضرب الأمثال بين الحاً لين فترة الحصار.

[3] أعلى قمة جبل في سلسلة الجبال المحيطة بمدينة دهوك.

إذا ما استطعتَ أن تجتاز الاستعلامات الأولى بحيلةٍ ما، فإنَّ الاستعلامات الثانية لن تتمكن من اجتيازها حتى لو صرت طيراً في السماء، وخاصةً فيما لو كان أحد فحولهم هناك.

في الاستعلامات الثانية يجلس رجلٌ بعين واحدة، ولو أخذتَ تسردُ له الحجج وتباكيتَ من الصباح إلى المساء فلن يجيبك إلا ببرودٍ وَتَكَبُّرْ: لن تدخل. كانت لديه تعليمات صارمة من إدارة المقهى، والرجل ذو العين الواحدة يطبق الأوامر بحذافيرها.

الذين قرءوا التقرير الصحفي الأجنبي سواء المُتَرجم أم بلغته الأصلية قالوا: يا للهول هذه المقهى في مدينتنا ونحنُ لا نعلمُ عنها شيئا، فكيف لهذا الأجنبي الغريب أن يحصل على هذه المعلومات....وما هو هدفه؟ ..... ولماذا يهتم؟

قال آخرون: المعلومات الدقيقة عن هذا المقهى وتحليلات هؤلاء العميان ومقدار رؤوس أموالهم، كيف استطاعوا الحصول عليها، بالتأكيد إن هذه أسرار شخصية وتخصُّ الدولة فكيف لابن الحرام هذا أن حصلَ عليها؟

أما الذين كانت هوايتهم متابعة الصحف والتقارير من هذا النوع قالوا:

هذا هو فن الصحافة، يخرجون الضبَّ من جحره.

وآخرون غيرهم قالوا: يجب أن لا يعمل أحدٌ عملاً ما لم يكنْ متقناً له كهؤلاء، نعم لكن اليساريين والمتعصبين القوميين أعادوا

نفس الأسطوانة القديمة: هذا أمرٌ دبِّر بليل، وهذا الصحفي ذو شخصية مزدوجة وله ارتباط بأحد أجهزة المخابرات.

- طيب إلى أين يريد أن يصل؟ ربما لديه رسالة يوصلها إلى حكومته وشعبه مفادها: (هؤلاء هم الذين قطعتم من أجلهم آلاف الكيلومترات لتدافعوا عنهم وتحررونهم).

السؤال الذي حيَّر الجميع "كيف حصل الصحفي على المفتاح الذي أوصله إلى هذه القضية؟ وكيف استطاع أن يقنع هؤلاء العميان بتزويده بهذه المعلومات؟" ربما ظنَّ العميان بأنَّ هذا التقرير سيعكس صورة حسنة عنهم أمام الشركات العالمية في الخارج، وفيه كذلك إشارة إلى حكومتهم عن مدى قوتهم الاقتصادية التي يجب أن يحسبوا لها ألف حساب.

وبالفعل أصابوا هدفهم كما أظهرت نتائج التقرير الصحفي الذي أحدث صدى كبيراً في الداخل والخارج صبٌّ في مصلحة العميان.

ليس هذا فقط، حسب هذا التقرير، قام أحد معاهد الدراسات الاستراتيجية بإرسال وفد إلى المقهى لإجراء دراسات مستفيضة، وقام الوفد بإعداد تقرير ورفعه إلى جهات مهمة وخطيرة ولم ينشروا أي شيء عن الموضوع، وإذا ما وصلت بعض العبارات إلى أحد الصحفيين، كان المعهد هو الذي يقوم بتسريبها خدمةً لأهدافهم غير المعلنة..

السؤال الذي كان يتداول بكثرة بين أهالي المدينة ودون أن يملّوا منه، وهذا السؤال كان طعاماً على موائد الفقراء والأغنياء، وكان مصدر حيرة كبيرة للجميع: "رجلٌ جاءنا من وراء البحار والمحيطات..نعم ...كيف لابن الحرام هذا أن عثر على المقهى- وقبل أن يكمل سؤال قال آخر: هذا الصحفي الفرعون لم يأتِ من فراغ، وهذه بديهية لا تحتاج إلى إثبات. ولكن السؤال هو من الذي يختبئ وراء هذه العقدة غير القابلة للحل؟ والأهمُّ من كلِّ هذا كيف أمسك بأول الخيط؟ كيف وصلَ إلى كل هذه المعلومات بينما لا يزال أكثر من نصف المدينة لا يعلمون شيئا عن هذه المقهى التي قُورِنَت بالبورصات العالمية وول ستريت.

والأدهى من كل هذا، اقتناع أهل المدينة بأنَّ غلاء الأسعار سببه هذه المقهى وهؤلاء العميان الملاعين، المساكين الذين كانوا يعانون الفاقة، كانوا يصرُّون على أسنانهم ويقولون بحنقٍ وغضب: هؤلاء العميان أعمى الله بصيرتهم هم الذين ربطوا أرزاقنا على ظهر غزال وعلينا أن نركض وراءه.

أو كانوا ليقولوا:

- هيهات.. إذا كان الاقتصاد والتجارة بيد هؤلاء..فلن يفسحوا لنا فرصةً للعمل ولو كباعةٍ متجولين..

أما المثقفون والذين كانوا قد سافروا كثيرا ورأوا بلاداً كثيرة، يقولون:

- جهّالٌ وأمّيّون كهؤلاء، لا يصلحون حتى للتسول وطرق الأبـواب في البلدان الأخرى، وفي بلادي يصيّرون أمراء وحكاما..

والمثقفون المفكرون الذين اطلّعوا على تـاريخ الأمـم والشـعوب كانوا يقولون:

- كل الأمم التـي مـرّت بانعطافـات تاريخيـة وتغيـيرات جذريـة، ظهرت لديهم طبقة من الاستغلاليين الطفيليين...وأقوالٌ أخرى..

ولكن القلّة القليلة كـانوا يسـتمعون لهـؤلاء، لأنّهـم لا يقـدمون حلولاً، وفي إحدى المرات قال علو بن زليخة: الحمد لله عرفتم الداء، فأين الدواء؟

هذا التقرير لم يكنْ كقنبلة انفجرت مرةً واحدة، بـل كوَبـاء كـل يوم يصيبُ أشخاصاً جدد ويعلم به آخرون..

كان هناك الكثير ممن ينظرون إلى الموضوع ببساطة ولا يجدون فيه أية مشكلة شخصية لهم، لكن الذين كانوا يهوّلون المسألة كانوا ينظرون إلى التقرير كديناصور هبطَ إلى المدينة فجأة والحـاذق مـن يقدر على الفرار منه..

طيّب إذا كانت الطبقات المتوسطة وأصحاب المشاريع الصغيرة قد اهتمـوا بالموضـوع خوفـاً عـلى مصـالحهم، فلـماذا يهـتمُّ هـؤلاء المُعْدَمون؟ وماذا لديهم ليخسروه؟

هذه المقولة تكرّرت كثـيرا، وكـان جـواب الجميـع: "هيهـات يـا عمّاه، ما كـان قويـا سَيَضْعُفْ، ومـا كـان ضـعيفاً سينكسرـ" هـذه الأقـوال كانــت حــديث الســاعة، في الأزقّــة الضـيّقة، في المجــالس

والمؤسسات الحكومية والمقاهي وكلّ مكانٍ آخر، إلى أنْ وجدت طريقها إلى الصحف والمجلات، على الرغم أنّ هذا الموضوع كان في البداية يتّسم بالسرية، ولا يُثار إلاّ همساً وبالإشارات وخلف الكواليس...لكن الأقوال والأقلام لم تكتفِ بهذه الضجة، ومثقفو السلطة عجزوا عن الدفاع وكانوا يقولون بانكسار: هذا الكلام لا يخدم أحداً...وليس في مصلحتنا..

والشيء الأهمّ والأدهى أن النص المترجم لهذا التقرير كان مزيفاً، حيث قام المترجم بحذف كل ما يَمسُّ مقهى العميان بسوء قدم مصلحة العميان على مصلحة الشعب ابتعاداً عن المشاكل ولكن عندما نشر النص المترجم للمرة الثانية كاملاً، وبدون حذف أثارَ ضجة أكبر وظلّت تكبر.. وتكبر كل يوم.

في كل مجال يثار هذا السؤال:

كل هذه الأطعمة والأشربة من لحوم حمراء، الدجاج والأسماك والمعلبات والأدوية والعصائر والألبان كلها نافدة المفعول ومُضِرّة بالصحة ..فلماذا نقبل كل هذا؟ هل من أجل أن يزيد هؤلاء العميان من حجم قروشهم؟

آخرون كانوا يقولون:

يا لهؤلاء عديمي الضمير وآخرون يقولون: أعماهم الله. لينتقموا منا.

علو بن زليخة رفع يديه إلى السماء وقال:

يارب.. يا الله.. أنت الأعلم.. "ويلتفت يمينا ليعتدل الذين من حوله:

طيب إذا كانت لديهم أعين يبصرون بها ..فماذا كانوا سيفعلون بها، علو بن زليخة عبس وجهه وكادت عيناه أن تقفز من حدقتيها وقال بصوت عال:

- والله لكانوا سيدفنوننا.
- والله الذي خلقنا..لكانوا سيدفنوننا أحياء.

وأيَّدَّ جميع الحاضرين موافقين علّو وقالوا: نطقتَ بالحق.

عندئذٍ انتفش علّو كالديك الرومي ودفع صدره إلى الأمام، أحد موظفي الصحة قال: كلُّ الذين يقفون في طوابير المستشفيات ويراجعون العيادات الخاصة، كلّهم بسبب الطعام والشراب الذي يستورده هؤلاء العميان لنا.

وتطرّق الحديث إلى الأجهزة المنزلية والمكائن والمعدّات الثقيلة تحولّت كلُّها إلى خردة واستوكات بعيدة عن منشئها الأصيل. هذه الأحاديث حفظناها كفاتحة الكتاب التي نقرأها في الصلوات الخمس، وحيثما ابتدأ أيُّ حديث لن ينتهي إلاّ عند مقهى العميان، وكشعبٍ متخلّف لا يعرف غير البكاء والعويل، بدون أن يشغّلوا عقولهم للبحث عن حلٍّ ما.

* * *

وفي إحدى المرات وفي لقاء تلفزيوني، جمعَ ثلاثة من هؤلاء العميان، ليتكلموا عن الوضع الاقتصادي في البلد والخدمة التي

قدّموها للارتقاء بالاقتصاد الوطني وخدمة أهالي المنطقة، وحين سأله مقدِّم البرنامج:

- ما فعلتموه حوّلنا إلى مجتمع مُسْتَهْلِك، مدَّخِّنْ وكسول، لا ينتج شيئاً، فقط جيوبكم هي التي امتلأت.

أحد هؤلاء العميان، وَضَعَ نظارتيه ومسح عينيه بمنديل ورقي...عشرات المشاهدين صرخوا:

- ماذا سيفعل الله بكَ بعدَ أنْ حرَمَكَ من نور عينيك.
- قال آخر: اللهم يعميك حتى في الآخرة.
- وصرخَ آخر: لو أنَّ قنبلةً أصابت هذه المقهى ولم يُبقِ فيها حجراً على حجر، لاسترحنا جميعاً.
- وقال آخر متهكِّماً: يا لهم من رحماء، كرماء، يساعدون الفقراء، والمساكين، لكنَّهم يفتعلون مائة قضية ليتملَّصوا من أية رسوم أو ضرائب.
- وقال آخر: يا ربِّ زلزلْ المقهى تحت أقدامهم، واجعل عاليَهُم سافِلَهُم، وامحُ آثارهم في الأولين والآخرين.
- كلهم رددوا: آمين...آمين...آمين..
- قال أحدهم وكان يجلسُ في نهاية الديوان، وهو يهزُّ رأسه ضاحكاً، ويمطُّ شفتيه:

نعم لقد أفنيتموهم!!! هيهات!!! هيهات!!!

ستعود الكراكي

قصة: أنور محمد طاهر

ترجمة: ماجد الحيدر

رفع الموبايل، رقم دون اسم.

ترى من يكون؟ فلأرد عليه..

ودون سلام أو فرصة للرد جاءه الصوت:

ها. كيف أنت يا عديم العهد والوفاء!؟ أنت لا تتذكري بـالطبع. لن أعتب عليك لكن ينبغي عليك أن تتذكرني على كل حال. أتعـرف من أين حصلت على رقمك؟ من تلـك التـي دأبـت عـلى تسـميتهما بالعذول لأنها كانت تراقبنا أينما ذهبنا.

جمد دون حراك ولم يستطع بلع ريقه. أراد أن يقول شيئا لكنـه خرس تماما.

ألو ألو. أين ذهب صوتك؟

وارتسمت ابتسامة على شفتيه.. أراد أن يجيبها مغنيا"

مري من هنا يا ذات الجدائل الشقراء فلقد عرفتك! *

* * *

إي زمن كان، أية سنة، عندما قال لها للمرة الأخيرة: لقد اتخذت قراري وسأمضي في درب اللاعودة.

نظرت اليه بوجه حزين وقالت له:

كت أعلم بأنك راحل دون ريب.

يجب علي أن أذهب. من الخزي والعار ألا أفعل.

هزت رأسها وانتشرت خصلات شعرها على وجهها وقالت:

لا أعرف ماذا أقول. لنشرب شاي وداعنا الأخير في الكافتيريا.

جلسا أحدهما قبالة الآخر حزينين صامتين كأنهما واقفين على رأس جنازة عزيز ممدد بينهما، فهذ هو اليوم الذي يدفنان فيه الى الأبد تلك العلاقة وذلك الحب الذي جمعهما.

وكمثل شريط سينمائي يدور في رأسه اعتاد أن يقول في هذا الوقت من نهاية العام بأن (الكراكي تعود) نحو المواطن الباردة وأنها ستعود سريعاً من موسم هجرتها، لكن يبدو أن لا عودة هذه المرة. كان طفلاً صغيراً حين كان يراقب رفوف الكراكي وهي تطير الى المصائف الباردة وتعلو أصواتها وصيحاتها ولا تحط على الأرض إلا حين تدنو من بحيرة وان. وعندما كان يتساءل:

وكيف لها أن تواصل طيرانها ليل نهار دون أن تنعس وتنام؟

كان المتعلمون والعارفون يجيبونه:

حين ينعس أحدهم يفرش اثنان من رفاقه جناحيهما وكأنهما يحملانه عليهما وهو نائم.

استفاق من تلك الأفكار عندما وضع عامل النادي قدحي الشاي أمامهما، وعرف هو الآخر بأنه متعكر المزاج كما في كل مرة. وبدا كأنه يخجل من السؤال. كانا يعرفان أنهما يمضيان في طريق مجهول ونفق لا يلوح لهما في نهايته بصيص من ضياء. في هذا الوقت من العام الماضي قال لها بين الدعابة والجد:

الكراكي تطير صوب الجبال.

فاكتفت بأن هزت رأسها قائلة:

ثم.. ثم.

أراد أن يزيد في إيضاح ما يريد قوله:

لكن الكراكي لا ترحل لوحدها، إنها تصطحب أصدقاءها وشركاء حياتها معها.

فسألته في تمهل:

وماذا يعني هذا؟

شعر بالغيظ وقال لنفسه: يكفي ها الخجل. فلأرمِ بهذا الحجر في هذه البركة الراكدة.

يعني أنني سأذهب لوحدي دون أن تكوني معي.

احنت رأسها وانسدل شعرها المحنّى الطويل فوق عينيها ولم يبن من وجهها سوى ما يظهر ابتسامتها.

ما علاقتك الآن بطائر الله هذا.

آها .. فلأقل لك. طائر الكركي ليس له غير شريك حياة واحد لا ثاني له. وإذا حدث أن وقع صريعاً لبندقية صياد أحمق، وهو ما يندر حدوثه، فإنه يظل وحيدا طوال ما تبقى من عمره. إنه يواصل النحيب والصراخ لكنه يظل وحيدا. هكذا هو في وفائه وحفظه للعهود.

انظر لما يفعله وهو مجرد طائر يحلق في السماء ما بين البوادي والجبال بينما يتحدث رجال هذا العصر ـ ليل نهار

عن حقوق المرأة ولا يلتزمون عمليا بحرف مما يدور على السنتهم.

لبثا ينظران في عين بعضهما البعض ولا يدريان من أين يبدآن بالحديث. لقد أسال كل منهما بحاراً من الكلام خلال هذه السنوات الأربع التي بدأت بصداقة تحولت الى حب وشهدت الكثير من الصعود والنزول والخصام والصلح.

ها هو الآن يقف على مفترق طريق لمصير غير واضح المعالم قاصداً حياة أكثر عتمة وغموضاً، نارا حمراء مستعرة، من يوقدها ومن يخمدها ومن يؤججها؟

أصوات الغناء والموسيقى تنطلق من مسجل نادي الطلبة لكنهما لا يشعران بها، إنهما غارقان في عالم الأحلام والخيالات وصمتهما المطبق خير دليل على ذلك. أراد أن يقوم بمحاولة أخيرة كي يحرك صفحة بركة السكوت فقال:

اشربي شايك.

هزت رأسها يميناً وشمالا وأجابت من بين شفتيها:

لا أريد.

* * *

قالت له ذات مرة:

عندما أضع رأسي على وسادتي في الليل أفكر بك حتى يغلبني النوم، وفي الصباح أجيء لأجلس معك على مقعدنا المشترك حتى نفترق في العصر. إنه ذات السيناريو الذي يتكرر كل يوم وليلة.

وقال لها هازلا ذات يوم:

أنت مثل طفلة كثيرة الزعل يصعب علي ارضاؤها.

لكنهما أدركا أن هذا ليس يوم حساب وعتاب، لقد أدركا بأنه يومهما الأخير معا

في أحد الأيام أحنت رأسها فتدلى شعرها كله وأخفى وجهها فما كان من إلا أن أمسك بقلمه ودفع به شعرها الى الوراء. ابتسمت وقالت:

ما هذا الذي تفعله وسط الطلاب؟

هذا الشعر يخفي وجهك عن ناظري. ألست محقا؟

ضحكت وأسفرت عن أسنانها ناصعة البياض، وانطلقت تنهيدة ارتياح من أعماق قلبه كمن حقق نصرا كبيرا.

كان طلبة هذه القاعة يعرفون بأنه متى ما حضر الى هنا فلا بد أن تأتي هي الأخرى بعد دقائق قليلة لتحتل كرسيها الفارغ بانتظارها. وإذا حدث وأن تأخرت تمر كل دقيقة مثل سنة ويروح يهيئ لها كلمات قاسية ومرة، لكنها، وحالما تدنو وعلى ثغرها تلك الابتسامة، تختفي تلك المقدمات التي أعدها مثل ثلج ينهال على شعلة نار.

* مطلع أغنية كردية.

بعد أعوام وأعوام دأب على محاكمة نفسه متسائلاً:

ترى هل كانت تلك الخطوة التي قفز بها نحو مصير ضبابي مجهول صائبة أم خاطئة؟

لكنه لم يتوصل الى جواب رغم تكرار السؤال مرات ومرات. غير أن صديقا له، وبعد أن استمع الى حكايته مرتين وثلاث وأربع، واجهه بالجواب:

كانت خطوة غير موفقة.

أتعني بأنني أخطأت باتخاذها؟

نعم. ولكي أوضح لك أكثر سأقول: كانت خطوة حمقاء!

ولكن لا !!.. صحيح أن التحاقي بصفوف الثورة أو امتناعي عن ذلك ما كان ليحدث فرقاً لكن عدم التحاقي بها كان خزيا وعارا ما بعده عار!

فهز صديقه رأسه وقال كمن يحدث نفسه:

نعم الأمر كما تقول.

كان حائراً بين عشقين فاختار الأصعب والأخطر، ولم يقارن يومها بين الخسائر والأرباح. وهذه هي النتيجة. وعاد ليرفع صوته قائلا:

وهل أنا تاجر أو بقال لأحسب حساب الخسائر والأرباح؟ كان علي أن أنحاز الى قرار شعبي ومصيره، ولقد دفعت ضريبتي مثل الآخرين.

وسكت وغرق في التفكير، ثم همهم قائلا:

غير أن ضريبتي كانت أفدح من الآخرين. لقد استحلت الى كركي معطل الرادار كسير الجناح. لا أعرف ماذا أقول!

لكن الحياة مليئة بأسئلة لا جواب لها، وهذا واحد منها. لقد اعتاد منذ صباه أن يطرح اسئلة عن الوجود والعدم. أسئلة كهذه ما فتئت تطرح منذ الأزل، وكل يجيب عنها حسب قدرته وعلمه. ما من أحد يعرف الصادق من الكاذب، وكل مفكر ومفسر يسعى لشرحها حسب رؤياه ومصالحه. لكنه قال لنفسه بعد أن رأى اولئك المشردين تحت الخيام المهلهلة في مخيمات اللاجئين:

أوهووو.. أين أنا وأين هؤلاء!

كان (سليم) مقاتل البيشمركة الذي لم تتوقف الألسن عن التغني برجولته وبطولاته في ميادين الحرب ومقارعة الأعداء يتأبط زوجاً من العكازات. هذا البطل الذي سار أربعة أيام بلياليها يحدوه العشق حتى وصل الى سوح القتال ضد هجمات الأعداء في حرب الفناء والوجود، ها هو يخرج بهاتين العكازتين مكافأة ونيشاناً لرجولته!

ولهذا اكتفى، حين سمع بما خاضه من محن وأحداث، بأن عض على لسانه قائلا لنفسه:

أهاا.. من المخجل أن تتحدث عن نفسك بعد الآن!

* * *

لا يعير الكركي اهتماماً للحدود والدول ولا يعترف بها. تلك الحدود التي يرسمها الساسة والقادة العسكريون كل حسب قوته وقدرته وهم يريقون دماء آلاف الشباب الرائعين الذين يجعلونهم وقودا لحروبهم القذرة وقرابين على مذبح تعطشهم لإرضاء أحقادهم وأهوائهم النفسية المريضة لكي يكتبوا لأنفسهم اسما في سجل التاريخ حتى لو كان على حساب دموع الأمهات وأنين الصغار. ألم يعلموا أن هذا العالم الفسيح يتسع للجميع كما دأب (علو صافي) على القول:

القادم الى الدنيا يجلب رزقه معه، إنه يأكل بفم واحد لكنه يعمل بيدين اثنين.

كان طفلا صغيرا حين أصبح هذا القول حكمة ومثلاً يدور على ألسنة الناس. وهذه الكراكي، إنها تتبع قول المسيح: كل أرض وجدت فيها الخبز والماء والأمن هي وطنك

علام إذن صراعكم هذا؟ أعلى اختلاف الجلود والألوان والألسن؟ لقد سعى بعض المفكرين والمتنورين الى حل هذه المعضلة، غير أن أصواتهم ضاعت وسط معمعة السلاح في الوقت الذي صعد فيه المتعصبون والمحتالون وأصحاب العقول المتحجرة ومثيرو الفتن فوق أجساد الضحايا الذين يكتشفون لاحقاً بأنهم اعتلوا أكتافهم وأراقوا دماء الشهداء بمعسول الكلام وفارغ المواثيق وكاذب الوعود التي لا تتجاوز أطراف الألسنة فيما يظل الآخرون سذجا جاهلين بما يدور من حولهم فتراهم يتقافزون بين أيديهم ويستقبلونهم بالصلوات ويندفع بعض المخلصين منهم كي يلقوا بأنفسهم وسط اللهيب.

لو كان كركيا بذلك الوقت لما اعترضت طريقه حدود ولما أطلق اليوم هذه الحسرات على ما مضى من أيام. لم يكن يدري وما دار في خلده أنه الفصل الأخير وبأن الكراكي لن تعود وبأن بحارا وقارات بأكملها ستفصل بينهما.

علماء الطيور أجروا الكثير من التجارب كي يعرفوا كنه هذا الرادار المثبت في رؤوسها والذي تجعلها تحفظ كل تلك الطرقات دون أن تضل سبيلها ولو لمرة واحدة، وحين يحررونها من أقفاصها تجد طريقها في السماء بالذبذبات حتى تلتحق بأسرابها ثم تضع بيوضها وتحضنها حتى تفقس، ثم تطعمها وتعتني بها حتى تقوى اجنحتها، ثم تطير مع أقرانها في مواسم الهجرة الى مواطنها.

لكنك بقيت مثل سمكة أصابها الدوار. مثل قارب محطم متهاو أضاع طريقه وسط البحر فلا بوصلة تهديه ولا يفرق بين شرق وغرب. مثل كركي كسير الجناح!

احتفالية للموت

قصة: أنور محمد طاهر

ترجمة: ماجد الحيدر

قبل أيام انتشرت الأخبار بأن شخصين سيجري اعدامهما. وأشيع بإن القرار قد صدر عن القيادة العليا للنظام ووقع عليه رئيس الجمهورية.

- كيف سمعت هذا الخبر يا مهجوم البيت!؟

فقاطعه سريعا:

- إخفض صوتك. ألا ترى كم من الأعين ترصدك؟ المقهى يضج بالجواسيس والجنود ذوي القبعات الحمر. إنهم أكثر من الذباب والأزبال وايديهم على الزناد والشر والحقد يمطران من وجوههم حتى أن المرء يكاد يقسم بأنهم لا يختلفون في شيء عن زبانية الجحيم.

كان هذا هو اليوم الثالث لرفع الحظر على مغادرة المدينة، على أن يعود فيفرض قبيل المغرب. لم يكن الابتعاد لعشر خطوات ممنوعا فحسب، بل إنهم سيمطرون من يرونه بوابل من الرصاص دون سؤال وجواب ليهلك كما هلك الكثيرون من قبله دون أ يتحمل المسؤولية سواه. عندما يرخي الليل سدوله تغلق المدينة أبوابها بالسلاسل ولا يبقى في دروبها وأزقتها سوى الكلاب السائبة وأصحاب القبعات الحمر وذئاب النظام المسعورة. كان النظام يرمي

مـن وراء ذلـك لإدخـال الرعـب الى نفـوس اهلهـا. ذلـك هـو قمـة سعادته وأقصى أمانيـه التـي يتـوق معهـا أن يبـز المغـول والنـازيين والفاشست في شدة الظلم والقسوة والطغيان.

* * *

في ضحى اليوم التالي شوهدوا وهم يدقون أعمدة خشبية عالية ويربطونها الى بعـض أمـام بوابـة القشـلة. لم يعـرف أحـد، عـدا المتقدمين في السن ممن خبروا الحياة، ما الذي يفعلون. لكـنهم، كـما يبـدو، آثـروا السـكوت أو البـوح للقليلـين مـن مقـربيهم. أشخاص من الغرباء عن المدينة نصبوا أربعة أعمدة أمـام بوابـة القشلة ثم صنعوا منصتين مرتفعتين. كنا مجموعة مـن الأطفـال عندما مررنا من أمام بوابـة القشـلة وأبصرناهم وهـم يرفعـون تلك الأعمدة والمنصات. قـال (دَحـي) وهـو صـبي في عمـر بـين الطفولة والمراهقـة لكنـه يكبرنـا في السـن ويـدعي بأنـه قائـدنا وأرجحنا عقلا لأنه يسبقنا في الدراسة بصفيّن:

- هل تعرفون ما هذا؟

وأشار الى الأعمدة فسكتنا وقـد تعلقـت أبصـارنا بـه منتظـرين، لكنه سكت كمن يريد أن يضفي أهمية على سؤاله ولا يتعجل الرد. أجاب كل واحد منا بطريقتـه. وكانـت الاجابـات كلهـا تـرتبط مـع طريقة تفكيرنا الطفولية والبيئة التي نعيشها. قال واحد منا:

- هذا منجنيق. إنه يشبه الصورة في كتاب التاريخ.

وقال الثاني:

- لا يل هي أراجيح العيد!

فرد ثلاثة من الأطفال:

- كيف هذا؟ لم يمض على عيد الأضحى إلا بضعة أشهر.

وظل (دحمان) ساكتا كمن لا يريد أن يبيع بضاعته بثمن بخس. كيف لا وهو يدعي الذكاء والخبرة والقيادة. أما نحن فقد نفد صبرنا ونحن نتظر ما يجود به علينا حتى قال:

- كلهم لا تعرفون، لكنني سأخبركم.

وقطع كلامه ثم صفق بيديه ووثب في الهواء وصاح:

- سيأتي بهلوان!

هتف الجميع بصوت واحد:

- بهلوان؟!

لم يعرهم اهتماما وواصل حديثه كم يكلم نفسه:

- سيأتي بهلوان. وسوف يرقص ويروح ويجيء على الحبال دون أن يسقط.

بقينا مندهشين، وأرتسمت في أذهاننا، صورة البهلوان وكيف يسير على الحبال أن يسقط. لم تستوعب عقولنا الصغيرة هذا الكلام. وأدرك (دحوي) هذا فطفق يضيف على الصورة مزيدا من الحياة بقوله:

- هل ترون الخشبتين هناك؟

- نعم، نعم (أجبنا معا)

- آها.. ممتاز. سيربطون الحبال في رأسيهما ثم يصعد البهلوان عليها ويروح يقطع المسافة راقصا دون أن يسقط بينما يصيح رجل ثان من تحتها قائلا: الفضل فضلي في هذه الأعجوبة.

وطفق يثرثر دون توقف وهو يلفق قصصا وحكايات حتى انتصب شعر رؤوسنا من العجب. ومضى يحكي لنا مستعينا بحركات من يديه ورجليه كيف رأى عمه في إحدى المدن بهلوانا يتسلق الأعمدة ويرقص على الحبال كما القرود، ويا له من رقص يثير الدهشة.

سابقا كان اسم دحو هو (هيرو) ثم أصبح (دحمان) ثم ارتقى درجة أخرى فتحول الى (رحمن) فلم يبق إلا أن يصبح (رحمن رحيم).

وراح يزيد الموضوع إحماء وإثارة ويؤلف من نسج خياله قصصا وأساطير يرويها بطريقة فنية وينسبها الى عمه. عقولنا الصغيرة لم تكن تستوعب كلاما كهذا فكنا ننصت اليه فاغرين أفواهنا وهو يمضي قائلا:

- عندما يسير البهلوان على الحبل الذي لا يزيد سمكه عن البنصر فإنه يرقص ويلف ويدور دون خوف كما لو انه يفعل هذا فوق شارع عرضه عشرة أمتار.

عندها نرفع أقدامنا ثم نضربها بالأرض ونصيح:

- كيف هذا يا مهجوم البيت؟

أو نتودد اليه قائلين:

- أخي رحمن. نقسم بالله إنه سيسقط.

فيجيبنا ببرود وهو يهز رأسه نافيا:

- لا، لن يسقط أبدا. إنه ساحر، ولماذا إذن يدعونه بهلوانا؟

ونظل ساكتين لا نحير جوابا، فلا نحن نعرف معنى هذه الكلمة ولا هو بقادر على شرحها لنا.

ظلت أعيننا معلقة بأولئك الذين ينصبون تلك المصطبة و الأعواد. كنا ننتظر انتهاءهم منها بفارغ الصبر، لعل البهلوان يأتي باكرا، وصرنا نتحرق شوقا الى حلول الليل كي يعقبه الصباح ونكحل أعيننا بمرأى البهلوان. لكن أفكارنا وأسئلتنا لم تتعد رغبتنا في أن ينتهي هذا العمل سريعا وأن يكون حقا من أجل البهلوان، إذ لم يؤكد هذا الاعتقاد أحد غير (دحو) ولم يكن ليمر شخصان بالمكان أو ينظرا لما يحدث إلا هزا رأسيهما في أسى وتهامسا مع بعضهما ثم أدارا رأسيهما غاضبين وأسرعا بالابتعاد.

لكن فرحتنا امتزجت بخلافاتنا حول أمكنة وقوفنا للتفرج على البهلوان، ومن منا سيكون الأقرب الى الحبل. ومر رجلان رفعا صوتهما وقالا:

- صحيح.. إنها لهم!!

فعلقنا على كلامهما قائلين:

- هذان يعرفان جيدا بأنها من أجل البهلوان.

لكننا كنا في واد وهما في واد. وحدثني عقلي بأنهما يعرفان موعد مجيء البهلوان لكنهما يرفضان إخبار أحد. ما من أحد يخبرنا

عن موعد قدومهم، غدا أم بعد الغد. حتى دحو نفسه لم يغامر ويحسم الأمر ويحدد الموعد بل كان يكتفي بالقول:

- قريبا سيأتي.

عندما تفرقنا أراد كل فرد منا أن يوصل هذه الأخبار الى أصدقائه، الساكنين في الأحياء الأخرى على الأقل، لأن حينا، أي القشلة، يعرف ما يجري أولا بأول وهو موضع ثقة الأحياء الأخرى في هذا المجال. كما كنا نحاول جميعا أن نقلد شخصية دحو وندعي الخبرة والاطلاع فنروح نزيد في التفاصيل التي نبتكرها من أحلامنا وخيالاتنا.

- ماذا إذا قلت أنك رأيته بأم عينيك وهو يترجل من السيارة؟

- كلا، لأنهم إن عرفوا ذلك سيأتون ويحتلون الأماكن القريبة.

* * *

لكن سهمه طاش، ولم تجر الأمور وفق خطته، فعندما وصل البيت وهتف وهو عند الباب:

- سيأتي البهلوان. لقد هيئوا له الحبال أمام ساحة القشلة.

التفت نحوه الجميع، وبينهم عدد من الضيوف، وظلوا ينظرون له في عجب من رأسه حتى قدميه كما ينظرون لمجنون أو ساذج أو أحمق. أما هو فقد ظن أنهم سكتوا من دهشتهم من قدوم البهلوان ومن كونه الوحيد الذي عرف هذا. وانتظر بعض الوقت كي يسأله واحد منهم فيشرح له بالتفصيل ويصف الحبل الذي ربطوه

في الساحة. لكن أيا منهم لم ينطق بشيء واكتفى أحدهم بأن قال له ببرود:

- توقف، توقف، كفى!

ثم أشاح عنه وواصل حديث مع الآخرين. ماذا حدث لهؤلاء؟ لم لا يحفلون بكلامي؟ هل يظنون قدوم البهلوان أمراً تافها قليل الأهمية؟ ترى كم مرة شاهدوه فيها من قبل؟ كانوا يتحدثون عن شخصين، فمن هما وماذا فعلا؟ بعضهم غير قادر على ربط الأحاديث مع بعضها والوصول الى خيط لفهم ما يجري، حتى لو أراد ذلك. أراد أن يتحدث عن البهلوان من جديد، لكنه قرأ في وجوههم شيئا آخر، شيئا خفيا مبهما. يبدو أن وراء الأكمة ما وراءها. حسنا، لو أمسك برأس الخيط لاستطاع أن يفهم ما يقال، لكن أين رأس الخيط؟ واحتدم الحديث وراحت تتخلله آهات وحسرات، فلم يجد فرصة ليعيد ذكر البهلوان. وقال أحدهم:

- يقال بأنهم قد جلبوهم هذا اليوم وسوف يقومون في الغد بـ..!

وظن أنهم يتحدثون عن البهلوان فسارع دون وعي الى القول:

- لقد رأيته يترجل من السيارة.

- من يا ولد؟

- البهلون طبعا ، وسوف..

أجاب دون تردد فأمسكه واحد منهم من تلابيبه وصاح به:

- اغرب عن وجهنا أيها الأحمق!

وقال ثان:

- غبي قليل العقل!

وتساءل ثالث:

- ما الذي دها هذا الولد؟ كأن مسّا قد أصابه.

وعلق رابع غاضبا:

- إنه لا يفرق بين قضيبه والجزرة، لكنـه يـدخل مجـالس الكبـار. أخرجوه من هنا!

فلم يجد من يدافع عنه غير أمه.

- ماذا دهاكم؟ دعوه وشأنه. لمَ تعاملونه مثل جـدي أجـرب. إنـه مجرد طفل يردد ما يسمع.

* * *

لم يعرف مقدار سذاجته حتـى سـاعة العصرـ لقـد اكتشـف أن دحو الذي حسبه ذكيا وخبيرا ظهر أخيرا على حقيقته: كذابا دعيّا لا تخرج من فمه كلمة حق!

- انتظر يا هيرو، سأراك يا يا جاحظ العـين! لكنـه ظـل يتقلـب في أفكاره وخيالاته. حسنا. ماذا قال دحو وماذا يقول هؤلاء؟ لمـاذا لا يتحقق ما نريد ويتحقق ما لا نريد؟

لم نكن غير ثلة من الأطفال تعـيش في أحلامهـا الهنيئـة، في عـالم يزهو بألوان قوس قزح. الى أين يأخـذونا؟ ولمـاذا يدوسـون أمنياتنـا

بالأقدام؟ لماذا لم يأت البهلوان؟ أي باب من البهجة أوصدوه في وجوهنا! وعلام يحطمون على حين غرّة هذا العالم الذي أحببناه ورسمناه في مخيلتنا؟

ثلاثون عاما وهذه العقدة تعيش معه وتكبر، وظل السؤال يدور في ذهنه: ترى من المسؤول عما حدث ومن أوصلنا الى هذا؟ لماذا غدونا ضحايا لهذه اللعبة الخبيثة القذرة؟ لكن كل من طرح عليه السؤال يقطب جبينه ويصمّ فمه ثم يمط شفتيه ويهز رأسه ولا ينطق ببنت شفة. أما هو فظل يعيده ويجتره:

- من أوصلنا الى هذا الحال؟ من جعل منا قرابين لهذه اللعبة الغريبة القذرة؟

لم يسعفه أحد بالجواب. رحمك الله يا "صوفي أحمو" وجعل مثواك الجنة التي صليت من أجلها. عندما قلت لي:

- صه يا ولدي. توقف عن هذا السؤال وإلا انزلقت الى الكفر. هذا عمل الله. لا يجوز لنا أن نتدخل في قضائه. هذه إرادته عز وجل.

اكتفيت بأن هززت رأسي فظن أنني اتفق معه. آه ما أبعد عالمي عن عالمه!

* * *

يا له من حزن ذاك الذي أرخى سدوله على البلدة؟ كانت قائمة السجناء تزداد طولا وتكبر يوما بعد يوم، حتى إذا حان موعد

الزيارة وذهب الأهالي الى المدينة الكبيرة لرؤية أبنائهم بدت البلدة شبه مقفرة.

واحد من كهول البلدة علق على هذا الوضع قائلا:

- لا عجب في أن تقفر البلدة. نصف أبنائها في السجن ونصفها الثاني ذهب لزيارتهم.

وما انفك يردد:

- اولئك الذين يُسجَنون لا جناية لهم غير تعاطي السياسة، مثلهم مثل أولئك الذين يُشنقون.

لا شك في أن كلمة "المستقل" لم تكن تجر الى أي نوع من الخوف والحساب ووجع الرأس، لكنه لم يعرف مغزاها الا بعد سنوات طوال لأنه إن حاول ذلك في وقتها لتطلب الأمر مزيدا من الشرح والايضاح أو لظلت أسئلة كثيرة دون جواب شاف.

* * *

في ذلك الصباح الباكر والدروب خالية إلا من الذئاب والكلاب توجهت أمه لصلاة الصبح فسمعت سربا من الغربان التي تنعق بصوت مرتفع: قاغ، قاغ، قاغ، فانقبض صدرها وبصقت عدة مرات الى اليمين واليسار ثم لعنت ابليس وصلت على روح النبي وطفقت تدعو وتقول:

- سترك يا رب.

كان عدد من الدبابات والمدرعات قد احتل ساحة القشلة خلال الليل، وقال أخوه:

- أنظر يا هذا. ها حضر البهلوان!

إذن لقد كُشف المستور وبان كل شيء، وأردف أخوه:

- عصر الأمس رأيت شيئا غير طبيعي. رأيت عددا لا يحصى من الشرطة الأغراب ذوي الخطوط الحمر، كانوا كلهم عابسين كالحي الوجوه مثل زبانية جهنم. لقد ألقوا الرعب في قلوب الناس الذين أدركوا أن حدثا خطيرا سيقع. كان الشرطة وأصحاب القبعات الحمر من الكثرة بحيث أنك لو ألقيت حذاء في الهواء لسقط على رأس أحدهم!

* * *

قبل أن ترتفع الشمس تجمعنا نحن أطفال الحي في مكاننا المعهود ونحن نحدّ أسناننا في انتظار قدوم دحو لكي نواجهه. لقد حل "غدا" الذي حدثتنا عنه يا دحو وهيرو الكذاب المخادع!

ها قد ظهر أخيرا. وقبل نصيح به يا كذاب بادرنا بكذبة جديدة:

- لقد وقع حادث أخر البهلوان عن الوصول في موعده.

وطفق يحلف بأغلظ الأيمان كي نصدقه دون أن يكون بيننا من يستطيع مجاراته في تنميق الكلام. أراد دحو أن يتولى زمام قيادتنا من جديد ويأخذنا لرؤية الرجلين المشنوقين فراح يشجعنا قائلا:

- حتى أولاد الحي الشمالي ذهبوا للتفرج عليهما.

فهو يعرف أن الحي الشمالي هو حي الموسرين والموظفين الذي لا يجرؤون (في اعتقادنا) على الخروج ليلا من أبواب بيوتهم. لم يكن أحد منا ليرغب في الحقيقة برؤية ذلك المنظر، لكن احدا منا لم

يُقدِم على قول ذلك لئلا يوصم بالجبان الرعديد ويجعل دحو منهما لقبا مسجلا باسمه. ولقد نجح، والحق يقال، في تأجيج تلـك الرغبـة في نفوسنا ولم يقف عند هذا الحد بل دعانا الى مزيد من الشـجاعة عندما روى لنا كيف أن شقيقه الأكبر (علي سرمي) راهن مـرة عـلى المبيت في المقبرة ليلة كاملـة ثـم كسـب الرهـان. وتبادلنـا النظـرات فقال دحو بلهجة حاسمة:

- تعالوا نذهب الى البناية المقابلة للمركز. هنـاك سـتكون الرؤيـة أفضل.

وسأل سائل منا:

- أخبرنا يا دحو. لماذا يشنقون هؤلاء؟ وماذا يقول عمك؟

كنا نعرف بالطبع أن عمه موظف حكومي. وكـان دحـو مواظبـا على زيارة بيته، رغم أن علاقة أهله به لم تكن جيدة بسبب الفـارق الطبقي، وأنه كثيرا ما ردد: ما ذنبنا كي لا نكون أغنياء؟

قال لنا دحو وهو ينقل ما سمعه على لسان عمه:

- هم ليسوا مجرمين، لكنهم يتعاطون السياسة والتحزب.

لم نفهم ما قاله فسألنا معا:

- وما السياسة والتحزب؟

فلم يعرف كيف يجيبنا ويوضح لنا فاسـتمر في تكـرار مـا قالـه عمه:

- يقول عمي أن من يتعاطى السياسة في هذه البلاد إنسان أحمق.

- ولكن ما هي السياسة وكيف يجري تعاطيها؟

فاحتار فيما يقول وعرف بأنه لن ينجح في الخروج من ورطته فلوى فمه وقال:

- يقول عمي إنها شيء سيء.

لم نكن، لا هو ولا نحن، نفهم ما يقول فقد اختلطت علينا الأمور وضاع منا رأس الخيط. وفي تلك الليلة كانت (زَلا كريز) تقول لابنها (عُزير):

- حلفتك بالقرآن والتوراة والانجيل. لن أسامحك الى يوم الدين وحليبي محرم عليك إن تدخلت يوما بالسياسة! أنت وحيدي ولا أب لديك ولا معيل.

وعندما أقفل هو عائدا الى البيت كانت أمه تقرأ الجنجلوتية ذاتها على أخيه.

من يومها أدرك أن السياسة في هذه البلاد ليست إلا فخا ومصيدة محكمة. إنهم يفتحون أبواب المقرات الحزبية على وقع الطبل والمزمار وينتظرون قليلا حتى يكسبوا الناس ثم ينشرون الخوف والسجون. يا لها من بلاد عجيبة غريبة، بلاد حكايات ألف ليلة وليلة.

***

بعد أن عدنا من رؤية مشهد الرجال المعلقين بالمشنقة، تبين أن دحو لم ذلك الرجل المقدام الذي يدعيه. لقد امتقع وجهه ثم اصفر حتى غدا بلون الزعفران، واحتبس صوته حتى صار أشبه بالأنين. نظر كل منا الى وجه الآخر وانتابنا إحساس بأننا لا نختلف عنه في شيء، لكن لا أحد يرى نفسه.

بدا كأن الليل قد أطبق بجناحيه على المدينة باكرا وغطاها كأنه يريد أن يحميها من تلك الذئاب. وظلت صورة هذين الرجلين المعلقين بثيابهما الحمراء وأعينهما المعصوبة بالخرقة السوداء تتراءى أمام ناظريه فأغمض عينيه بقوة عساه يبعدها عن ذهنه.

لم يتوقف جلاوزة الشرطة ذوي الخيوط الحمر على الاكتاف عن التوافد على البلدة. كانوا أشبه بمنكر ونكير يذكرون أهل البلدة بأن مصيرهم كمصير هذين ولسان حالهم يقول: لقد جئنا، جئنا ولن نرحل!

ونظر الى السماء، كأنما النجوم والقمر قد ارتحلوا.. كأنهم هاجروا الى الأبد. أين ذاك الضياء البهي الذي كان يشع منها قبل ليال معدودات؟ أين النجوم التي كانت ترقص حول القمر؟ هذه ليلة لن يستضيف فيها الكرى، لن يرى فيها سوى الكوابيس.

وعرف من يومها لماذا تقيم الأنظمة الفاشية مهرجانات الموت. يا له من منظر وحشي بشع! وتكرر المنظر نفسه بعد أعوام في أكبر ساحات العاصمة يوم أقاموا مهرجانا أكبر تناثرت فيه المشانق التي يتدلى منها الناس ويتجمع حولها أزلام النظام وجلاوزته، لقد وصلت

الوحشية الى أن تتجمع بعض النسوة حول تلك الجثث ليرقصن أمام الكاميرات بطريقة لو رقصنها في قاعة ما لسُمّين بالعاهرات والمومسات. وشيئا فشيئا صار هذا العمل جزءا من تراث النظام يتكرر كل بضعة أعوام.

* * *

في ليلة حافلة بالمسرات وحول مائدة عامرة انتحى بصديقته الأجنبية وبث لها بما يحمله من عقد وذكريات أليمة فإذا بها تضرب المائدة بقبضتها وتقول:

- يا الهي! كيف تعيش في بلاد تقيم مهرجانات للموت؟

ومضت قائلة:

- ستبقى هذه العقد ملازمة لك طوال حياتك، وإلا بماذا تفسر مشاركتك في هذه الليلة الحافلة بالموسيقى والأفراح بهذا السيل من الدموع وبهذا الحديث عن ذكرياتك المريرة المؤلمة؟ ألم تتدبر يوما وصية المسيح حين قال: أية بلاد تجد فيها الخبز والأمان هي بلادك فألقِ فيها رحالك.

لكنه ظل يكرر تلك الجملة التي رددها عشرات المرات كما يردد الدرويش أذكاره:

- الوطن كالأم، لا يمكن استبداله.

وعندما اتصل بها من المطار ليخبرها بأنه سيطير عائدا الى وطنه هتفت في عجب:

- ويلاه. كيف تعود الى بلاد تجاور فيها أولئـك الغاشـمين القسـاة الذين قضيت مئات الليالي تحدثني عن جورهم وظلمهـم؟ أيـة بلاد هذه؟

- آهٍ، إنك لا تعلمين. هذه البلاد التي تقيم مهرجانات للموت قـد مدت جذورها عميقا، عميقا في كياني!

المعلم

قصة وترجمة: أنور محمد طاهر

الإنسان المتقلب ومن ليس له إيديولوجية وفي كل يوم يرقص على حبل، هذا الشخص لا يستحق الحياة، هذه الأيديولوجية التي خدمت البشرية منذ أعوام طويلة، طبعاً المفروض علينا أن نجعل منها الأساس الاستراتيجي للمستقبل.

كل حزب ليس لديه فلسفة علمية سيموت اليوم أو غداً الأيديولوجية هو الوقود الذي يحرك ماكينة الحزب والداينمو لتنير أمامه الطريق كأنه كان يخطب أمام الجماهير أو خلايا الحزب، المجتمعون جميعاً أغرقوا في ضحكة سمع أصوات قهقهاتهم من كان في الحديقة الكبيرة وحتى أن بعض الجالسين استداروا إليهم، ايقنوا بأن نكتة قد رويت في مجلسهم البعض الذين كان يضحكون تحركت بهم الكراسي من شدة الضحك بعد دقائق من الضحك قال أحدهم:

ـ هاي هاي، أنه يتخيل

بأن الملك حي ويحكم في بغداد

قال الثاني:

- آه يا أخي أنتم حاملوا الايديولوجية لقد ابدعتم وانتم تضعون المنخل تحت أثداء الجاموسة ستحلبون حليباً وافراً.

قال الثالث:

- لينتظر موعده مع القنافذ ويطرقون الصفحية التي وضعت على رأسه حتى يجتمع القنافذ حوله ويصيدها أنظر إلى مقرات الأحزاب الايديولوجية، لقد تحولت مقراتهم إلى كهوف للحمام.

قال الرابع:

- مثل الأعرابي الذي وقع من الجمل ولا يزال مختالا بنفسه، خالي أنها مطفيه من المحول الرئيسي دع الخطوط الثانوية.

لم يبقى أحد من الحاضرين إلا وقد ساهم في الموضوع جلهم تحولوا إلى فلاسفة اليونانيين ومحافي الدفاع. ويحملون المعاول لهدم وتخريب أجزاء من فلسفة المعلم الذي سماها بالفلسفة العلمية والعصرية.

* * *

صور هذه الجلسة كانت تمر أمام عينه بعد مرور عدة سنوات وبعد سقوط المعسكر الاشتراكي، في هذه المرة وجد نفسه وحيداً. تلك الايديولوجية التي كان يجد نفسه لا أحد يباريه عندما كان يتحدث الجالسون جميعاً يجعلون من أعضاء جسمهم أذاناً ليستمع إلى محاضراته، وفي الاجتماعات الحزبية كان يتناول محاضراته كدرس يشرح ويناقش ما يقوله هؤلاء الجالسون كان منهم من يستضيفه لكي يشرح لهم من الكتاب الكبير والمرجع الأيديولوجي.

هؤلاء هم والمئات من أمثالهم كانوا يقولون له نحن مريدوك وعلى يديك تعلمنا الفلسفة من وجهة نظرك.

في الحقيقة كانوا يقومون بدور المريد وشيخ الطريقة والدراويش عندما كان هو يتكلم كانو يطأطأون رؤوسهم، ولو يكن بمستطاع أحد منهم التحاور أو المناقشة معه هو يتكلم وهم المستمعون.

وهو يتحدث لمدة ساعة والمجتمعون كانوا صامتين إلى درجة لو سقطت إبرة لسمعت صوتها.

هؤلاء كانوا هم يقولون:

- نعم صحيح ما تقوله هو الصح، كان أمنية كل واحد منهم أن يكلفهم بعمل لكي ينفذوها في ساعتها كأنهم حصلوا على تزكية من مربيهم لأن أوامر المعلم مطاعة عندما يكلفهم في اي أمر كان في أي مسكن أو مقر حزبي يصبح فيه قبلة ومزاراً لهؤلاء الشباب. في زمن كانت المناقشة والحوار وتكرار بعض المصطلحات والكلمات الأجنبية مودة، تمنح صاحبها مكانة وخبرة متميزة ولكن المعلم لم يكن بحاجة إلى ذلك لأنه كان له من المريدين الذين يخصونه بهذه المحبة وعلو المنزلة في أعينهم.

كان يتصور ويفكر في الموت وأن يظهر له قرون ولكن لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن يتمرد عليه مريدوه وطلبته عليه ولم يراوده حتى في خياله.

علماً بأنه اطلع على حالات كهذه في قراءته للكتب ولكنه لم يحسب أنه سيرى في يوم من الأيام أن لا يصلي أحد بأذانه.

لو رأى كتاباً مناقضاً لفلسفته كان يقول له هذه غثاء محيطات الامبريالية وكان يكثر من الشتائم في كلامه.

ليس هذا فقط اليوم كلامه يكون محال سخرية وموضوعاً للضحك والاستهزاء من قبلهم ومن من سلو أحمد، قبل سنتين من تلك الجلسة اكمل كتاب الفلسفي قد ختمها درسها وختمها على يديه ولا هذا فقط هذا ابن الحمار كل الدروس والمحاضرات التي القيت له وما ناقشت معه من الابحاث والدراسات التي تعلمتها من المدراس الحزبية والدورات الخاصة كد. كنت القن أياه مثل طلبة المساجد وأترجم له بالتفصيل كل طلبتي الآخرين ينظرون إليه بنظرة الحسد والغيرة من أهتمام به وكانوا يقولون أنه سيرثني وأجعله خليفة من بعدي حتى بعد موتي سيزيد على هوامشي- وتعليقاتي على الكتب.

كانوا يكررون مراراً بأن سلو محط أنظاري ورضائي ويصبح نائباً له بعد أن يخلع عبائتي ولكن ملعون الوالد، يسخر من كلماتي ويقول أن أفكاره وآرائه بانت عقنه.

آه منك يا سلو كنت كطفل تفوح من فمك رائحة الحليب عندما كنت أقرأ عليك تلك الكتب إلى أن أصبحت كاتباً واليوم في حزبك يصفونك بالكاتب الرصين والمثقف الأول الكبير.

أنت اليوم أصبحت حرام الملح والزاد عندما تطل من شاشة التلفزيون تعوي ساعة، عندما جئت إلى خليتي الحزبية كولد خجول ذات طابع قروي لم تكن ترفع رأسك في الاجتماع عندما كنت تتكلم لم يكن أحد يسمع صوتك.

بعض من الكتب حول علم النفس وكيفية تكوين الشخصية تحت ضوء الفلسفة العلمية وجهتك لقرأتها.

أن الكتب التي قرأتها لك بتوجيه، لو قرأها ملا حول الدين والأبحاث كان يمكن أن يكون أماما كالشافعي والآن يبنون العديد من المساجد تيمناً باسمه.

والآن أصبحت ألد أعدائي الحاقدين على تلك الفلسفة وتواصل الليل بالنهار أصبحت أجيرا وتكد وتعمل ضد هذه الفلسفة وتجمع حول بعض من السفهاء والمراهقين تلقي عليهم محاضراتي بشكل معكوس.

* * *

كان يلقبوني (بالفهد) اي فهد الحزب لأكون وريث ذلك الموسس والمتحدي، كنت أقول ما من أحد يرثني سوى - سلو - واليوم ملعون الوالد يلعن ويبصق على ماضيه.

- كل هذه السنوات قضيناها في (يقول كنا نركض وراء السراب) هو اليوم يريد أن يكون الجميع مثله حرام الملح والزاد أنت يا سلو أنت تركت الحزب أذهب يا مقصوف الرقبة لماذا ترمي بالحجارة على ماضيك؟

لا يمر يوم إلا ويعيد هذا الكلام مائة مرة كأنه مصاب بمرض الهذر، من دون أن يعلم في ظهيرة اليوم كان يكلم نفسه بعد ما حدث في الليلة الماضية وما حدث في الحديقة وأصبح يوماً تاريخياً في حياته حدث تحولاً مفاجأ في حياته كمثل تاجر كبير ذو مال بين ليلة وضحاها لينهض من النوم ويجد نفسه مفلساً.

والآن يستدير حوله ولكن لا يجد أحداً من المجتمعين في تلك الليلة هم كانوا دراويش ومريدوه بعد مرور السنوات كان.

- لماذا.

في فترة كان على قناعة إذا فشل الفكر في التطبيق ليس سببها قصور في الفلسفة والنظرية الفلسفية المهم الفلسفة على الصواب.

هذا الجدل والمناقشة لم ينقطع يوماً ما إلا وكان الحديث يدور حولها وكان يجادل بدون انقطاع ولكن أنصاره ومؤيدوه كانوا في تناقض مستمر يوماً بعد آخر.

كثيرا من المرات كان يجد نفسه وحيداً وأن نواجزه تؤلمه ولعابه يجف من كثرة الكلام والجدال دون أن يصل إلى نتيجة حتى مل منها، عندما كان يدافع عن نفسه وعن الفلسفة التي يؤمن بها كانوا يقولون له:

- هذا ما سمعناه كثيرا والفلسفة لا تقبل الخطأ وصحيحه كان الكل يضحكون ويقولون له متضاحكين:

يا معلم هذا الفلم قد شاهدناه للمرة المائة.

ليالي شهر كانون سودٌ وطوال، يقضي معظم وقته في شقته أمام مكتبته العامرة، في يوم كان مصدراً لكل المثقفين، وكثير من أقطاب الأحزاب الأخرى عدا حزبه كانوا يجاملونه بحلو الحديث حتى يعيرهم كتاباً أفقتدوه لانهم يعرفون أن ما من كتاب فلسفي مطبوع إلا ويأخذ مكاناً في مكتبته، العديد كانوا يقولون له:

- أطال الله عمرك كل كتبك تتناول موضوعاً واحداً وفلسفة واحدة ونفس الجاكوج والسندان، وكان أحد من الأصدقاء اللطفاء في الحديث والجلسات وحاضر البديهة قال له بين الجد والهزل:

- يا أستاذ مكتبتك كشخص له عينان ولكن لديه مرض عمى الألوان يرى العالم بلون واحد طال الله عمرك هناك ألوان عديدة.

بات مكفر الوجه محبسا بيد أنه كثيرا ما كان يتحدث عن حرية الأختلاف في الآراء وحرية الكتابة ولكنه لا يعطي مجالاً لأحد أن يناقشه في الفلسفة والآراء التي يؤمن بها.

إذا كان رده فيه شي بين اللياقة كان يقول:

- هذه تأثيرات الفلسفات الرأسمالية العفنة.

أو يقول:

- السلاح الأخير الذي مارسته الامبريالية ضد معسكرنا، وعندما كان يقول معسكرنا كأنه يتحدث عن أراضيه وضيعاته ولا ينبغي لأحد أن يتقرب منها، مكتبة تحتوي على كتب بعدة لغات ولكنها تخدم لوناً واحداً، في تلك الليلة كأنه دكتاتور جرد منه كافة نياشين الاستبسال وجعل منه شخصاً بدون سلطة وصلاحيات.

لا دراويش ولا مريدين ولا طلبة يلتفون حوله وهو يقوم بتحليل الأبعاد السياسية والدولة ولكن اليوم تبدو له كأن الجدران تعزف موسيقى جنائزية وأشخاص يحملون تابوتاً يسيرون نحو المقبرة، هل هذه هي الفلسفة التي كتب عنها الكثير ستدفن؟

صوت تلك الموسيقى يرتفع ويرى نفسه في هذه المكتبة كأنه حارس لمرقد أحد الأولياء الصالحين الذي دفن منذ زمن مضى، اليوم ليس لديه ما يعيد به إلى الماضي الذي كان يفتخر به لو كان أحد من هؤلاء المريدين السابقين لفضحوا بما فيه ومباشرة كانوا يقولون:

- ما تشاهده اليوم بسبب تلك الفلسفة التي ماتت ولم تستطيع مواكبة العصر ولم يكن للفرد أي دور فيه، إذا أمتعض المعلم بذلك كانوا يقولون بدون تردد:

- الحكم على النتائج أظهر لنا أن هذه المكتبة في طريقها إلى الموت يبقى أن تقفل الباب عليها.

- سلو ملعون الأب اليوم جرائد ومجلات حزبك يكتبون أقوالك بمانشيتات لو لم تكن هذه المكتبة من أين لك هذه المعلومات الفلسفية هل أخذتها من قبر والدك محو الراعي حتى وفاته لم يرى باب مدرسة أو جامع ولا يفرق بين شماله وجنوبه واليوم أصبحت سارتر!!

اليوم نتحدث عن الغرب والتناقض في الديالكتيك عندما تعلمت القراءة على يدي وكل أربع أسطر تقرأها تسألني ثلاث أو أربع مرات عن معاني الكلمات والمفردات واليوم تكتب علي وتقول:

- الـذين لا يسـتطيعون الانسـجام مـع التقـدم ويبقـون أناسـاً متخلفين عن الأفكار والقيم الحديثة ولا يستطيعون مواكبة العصر.

أبن الشادي أعرف أنك تقصدني قبل واحد وأربعين عاماً كنت أقول هذا الكلام للآخرين اليوم تبيعني أقوالي.

اليوم تنظمون جلسات حوارية في التلفزيون أنت سـهعـو أن محو هذا البليد الذي لا يفرق بين عضوه من الجـذر، لمكـم الحـزب من الأزقة وضمكم إلى صـفوفه واليـوم تملكـون السـيارات الفارهـة وتطلون من شاشات التلفزيون وبداية ونهاية حديثك عـن المصالح الدوليـة والنظـام العـالمي الجديـد والجغرافيـة السياسـية للشرق الأوسط والذي لا يعرفهم يتصور أنهم خريجوا جامعة هارفرد.

سه عو في اليوم الأول شاهدتك أمام مقرنا كنت منفوش الشعر بملابس مبهدلة كنا في عز الشتاء وفي هذا البرد القارس لم تكن تملـك معطفاً، دعوتك إلى الدخول أهديتك أحد قماصلي القديمـة بعـد أن تعشيت وهيأت لك مكان لنوم فيه مـن فرحـك كـأني قـدر منحتـك خزائن قارون من شدة فرحك لم تكن تطبق فمك.

في تلك الليلة بعد عدة اسئلة وجهتها إليك أمام ضـوء الفـانوس كنت أدقق ملامحك مثل مخرج سينمائي يبحث عـن ممثـل، بقيـت أفكر وقلت في نفسي هذه مادة خامة سأربيه مثلما أريد.

كنت لا تعرف من الكتب سوى المـنهج الـدراسي عنـدما سـألتك أية كتب قرأتها مباشرة قلت:

كل الكتب للمراحل الدراسة الثلاث قرأتها.

قال لي طلبتي أستاذ سوف تتعب كثيراً حتى تجعله كادراً أو حتى ينجح في إختبارك.

ولكني لم أفقد الأمل كنت أريد التحدي أنا ما زلت المعلم السابق سأبذل جهداً لأجعل من أمثالك (سه عو) كادراً متقدماً وفي الصفوف الأولى.

شاهدته في التلفزيون كان يمط شفتيه ويقول: الذي لم يجدد أفكاره مع الحداثة ولم يتفاعل مع النظام العالمي الجديد سوف تسحقه عجلة التاريخ تفتحت عيناه وكأنه يريد أن يخرج من الشاشة ويقول:

أقصد المعلم، يا ناس هذا (سه عو) أنه هو وهو نجمة هوليود في كل يوم يطل من شاشة التلفزيون حتى لو كان له مظهر جميل لقلنا بلا.

هذا لوح لمدة عام كامل كنت أقرأ في أذنه ألف باء الفلسفة وبالأخير يقول لي كم عاماً ماركس وماو عاشا معاً؟

منذ ذلك اليوم عرفت حتى أجعل من هذا الحمار أنساناً سأتحول إلى شبيهه ويعيد علي قصة (حسو قدشي):

منذ عام كنت أقول له بدلائل ونصوص أن (ماو) قد أنحرف عن أسس فلسفتنا. اليوم يرددها في المجالس، أخجلني أمام الجالسين كنت أتمنى أن ينفطر الأرض وأغور فيها. ما أستطعت أن أقوله، خيراً يا سعيد يبدو أنك لم تنم جيداً، لأنك تتكلم و:انك في المنام.

إذا كنت بهذا المستوى فكيف أصبحت هـذه الأيـام ضـيفاً عـلى صفحات الجرائد والمجلات، تتظاهر كمثقـف، كنـت لا تجيـد كتابـة تقريـر الاجتماعـات لخلايـا حزبيـة التـي كنـت تقـدمها لي، أصـحح العشرات من الأخطاء والتأشيرات أقدمها لك مطالباً أن تعيد كتابتها حتى تتعلم الكتابة.

وكيف بين ليلة وضحاها أصبحت هذا الفيلسوف تحلل القضـايا الدولية والسياسية الأوروبية والامريكية على أطراف أصابعك.

كنت أوقل أن أكثر من مرة يـا مهجـوم الـدار، كيـف نجحـت في مادة الجغرافيا في وقت لم تر خريطة للعالم ولا أطلس العالم أمامـك يوماً.

لكي تطلع على معلومات جغرافية أضفنا مـادة الجغرافيـة عـلى دروس الدورة الحزبية عسى أن يستفيد بعض الأغبيـاء مـن أمثالـك وأمثال سه عو ليس معلوماته قليلة بل معدومة.

حول المعسكر الاشتراكلي والطبقة العاملة معلوماتك والحمد لله كانت في مستوى الصفر.

وليس هذا فقط حتى عن تاريخ شعبك كانت في نفس المستوى حتى قلت مرة وهل للكورد تاريخ؟

يومها عرفت كم كنت ساذجاً في اختيار هـذا سـه عـو لا يكـون كما كنت أتصور ولكن يبقى هـماً عـلى همـومي، هـذا الشـخص لا يمكن أن يكون كادراً أو شخصاً طليعياً يقود أناساً، وأنـه لا يسـتحق

أن يكون بواباً في مدخل المقر الحزبي أو ضمن المتروكات أنا أعرفه جيداً.

ولكن كيف يكتب مقالات طويلة من يكتب له؟ إذا جميع الناس يصدقون بأنه من كتبها، ولكن كيف أصدق ذلك؟ بأن سه عو قد كتبها. أنا الذي أعرف وزنه ومعدنه وقد عجنته وعصرته لا يفرق شيئاً.

أعرفه يقيناً بأن سياسيي اليوم كل واحد منهم لديه كاتب عرائض يكتبون لهم الخطب والمقالات حسب الطلب والوصفة التي يريدونها.

حسنا يا سه عو ماذا تعرف عن سياسة أمريكا اليوم حتى تحدد وتؤثر سياستها المستقبلية؟!!

الآن لو وضع أمامه خريطة العالم لا يعرف موقع أمريكا عليها.

أبصق على عصرنا هذا عصر- النهازين والبلهاء (سةعو) لا يستطيع رعي عنزتين فكيف يقود الجماهير !! مرحباً أيتها الجماهير ستتقدم إلى الأمام.

أنا في العالم الفاني، وأنتم أحياء إذا لم تتحقق نبوءتي عن سه عو وأمثاله انهم سيقوودونكم إلى مصير مجهول وتستجدون الصدقات على أبواب الآخرين. ومن بعدها تعالوا وأخرجوني من لحدي وأرموا عظامي إذا لم نكن في عصر بائس ومريضي لا مكان لتلك الطفيليات أمثال سه عو.

لينقذك سه عو وأفكاره ورؤاه من الذئاب.

نظر إلى علبة سكايره فوجدها قد نفذت فتح علبة جديدة وبدأ ينفذ رشفات في السيكارة بكل شراهة وكأنهـا السـيكارة الأولى التـي يدخنها الليلة وأمتلأت المكبتة بالدخان كان يفكر عما حدث له قبل أربعين عاماً عندما سلك حي الميسورين لكي يلعب كرة القدم ولكن الأقدار دفعته إلى ما وصل إليـه، لعـل عامـل الصـدفة كـان السـبب وراءه وزميله حسين للوصول إلى يومنا هذا.

عندما التقى بزميل صفه حسين أخبره قائلا:

- بـأن أسـتاذ مـادة التـاريخ طلـب مـنهم المشـاركة في تظـاهرة ستنطلق ضد الحكومة.

كانت أفكاره القومية والطبقية لم تكن متبلـورة حتـى يسـتطيع معرفة التباين بينهما، التظاهرة لماذا وضد من؟

وما أن عرف أنها بناء على طلب مدرس التاريخ لأنـه كـان مثـار أعجابه لاحاديثه والوقائع التي كان يرويها حيث كان يحبذ تقليـده في كلامه ومشيته وعندما شارك في التظاهرة غمره الفرح وكأنه ملك الدنيا ومن يومها سلك هذا الطريق.

* * *

والآن بعد نضال مرير خـلال كـل هـذه الأعـوام مـن التشرد في الجبال الوعرة أن يكون رأسمالك في نهاية المطـاف مكتبـة يعيرونهـا بأوصاف متعددة، واحد يقول مكتبة بلون واحد وآخـر يقـول بعـين واحدة.

في الماضي كان رأسماله هؤلاء الطلبة والمريـدين مـن أمثـال سـه عو وسلو أصبحوا اليوم صعاليك بل أشواك تحت قدميه.

هذا التمرد الجماعي ماذا يعني؟ هل هـي مسـألة حداثويـة أو صراع الجديد مع القديم أو صراع الأجيال الطبيعي.

أو نهايـة مرحلـة الاشـتراكية بأتجـاه نهايـة التـاريخ أم هـو يـوم القيامة كما قلنا.

* * *

الليل طال والساعة العجلى تعد الدقائق من هذا الزمن الـرديء والغير مؤتمن.

قبل واحد وأربعين عاماً قـد سـلك الطريـق إلى حـي الميسـورين وعلية القوم ليلعب الكرة، أي صدفة جمعتـه بحسـين حتـى الخـبرة بأن يشاركهم في المظاهرة ماء غد من هذه الخطـوة بـدأت المسـيرة الطويلة والتي دامت واحداً وأربعون عاماً حتى وصل إلى مـا وصـل إليه.

هـل اختارهـا بمحـض إرادتـه وأدى إلى تشرـده خـارج الـوطن ويعيش أيام عصيبة بين الصخور والجبـال وعـلى خبـز يـابس ومـن بعدها لاجئاً في مدن الغربة.

نعم هو شارك في تلك التظاهرة ولم يكن يدري موضوعها ولمـاذا شارك لكنه كان يعرف انها ضد الشرطة.

منذ طفولته كان لديه عقدة نفسـية وخـوف مـن الشرـطة، أراد كسر حاجز الخوف وأزالة عقدته النفسية وأنه أصبح رجـلاً فعنـدما

قال له حسين بأنها ضد الحكومة، وهـو كـان يعـرف الحكومـة أنهـا تساوي الشرطة فقط.

أية صدفة حمقاء رمتهم إلى حـي الميسـورين، سـببه لم يكـن في حيهم من كان يملك كرة.

أي صدفة لقيطة قادتـه إلى حـي الميسـورين.. لا .. لا لم يكـن في حيهم من يملك الضغينة والحقد كان حيناً يمتـزج فيـه قـيم الريـف والحضر ولذا سلك طريق ذلك الحـي وطالـت تلـك المسـيرة واحـداً وأربعين عاماً بين جدران السجن والتشرد وبيشمركة في الجبال.

تلك التظاهرة أنتهت بعد ساعة القي القبض عليه وقدم آخرون إلى محاكمة. ومن في عمـرهم أعتـبرهم الشرطة أطفـالاً لا يعرفـون شيئاً عن الموضوع مثل الذين يـذهبون إلى وليمـة بـدون دعـوة ولا يعرفون صاحبها.

عنـدما أسـتدعي صـديقه حسـين إلى غرفـة المـدير قـال ضـابط الشرطة:

إذا ألقينـا بهـؤلاء السـجن فيجـب أن تحضرـ أمهـاتهم حتـى ترضعهم الحليب.

لذلك ضحك الجميع

قائلا (أنجبو)

* * *

بعد عدة أشهر أتصلوا به وبكلمات معسولة ومنمقه، قائلين لـه ستكون في المستقبل شخصاً ذا سلطة واسـم في المدينـة ومـن يومهـا

كان يتخيل أنه سيصبح نابليون أو قيصر يستطيع احتلال العالم كان يتصور انضمامه للحزب سيجعله بطلاً كأبطال الأفلام السينمائية، عالم جميل مخملي. في حياته لم ير إلا عدداً من الأفلام السينمائية الذين هم على صهوات جيادهم يتقدمون جميعاً من الناس ويخرجون من كل معركة منتصرين وبعد مرور عدة سنوات تقدم في صفوف بسرعة عكس أقرانه وخاصة بعد أن أطلع على الأيديولوجية وشيئاً من فلسفة الحزب، حتى كان يسمى بالاستاذ أو يطلق عليه فهد الحزب.

* * *

ومن بعدها أصبح ذا خبرة واسعة في هضم واستيعاب الايديولوجية الحزبية إلى أن وصل إلى مستوى حتى أضحى كمرجع يلتجئ إليه المتجادلون كان لديه الحل والقول النصل.

قليلاً ما كان ينشر مقالاته ولكن في محاضراته والاجتماعات وكان مصدراً في الحوارات عندما كان يقال أن الاستاذ قالها.

وهذا القول كان كفيلاً أن يسكت هذا العضو وآخرين ممن يحبذون المجادلة.

بعد مرور عام على المظاهرة خرج أحد معارفه من السجن وبرفقة أقرانه من أعضاء الحزب زارهم.

وهو كان يتحدث عن السجن بأنه مدرسة الحزب فيها نتعلم الفلسفة ودورات خاصة بالتنظيم الحزبي حتى قالك

- الكادر الحزبي الجيد هو من يكون خريج هذه المدرسة وكانه كان يشعر بشيء من النقص لأنه لا يحمل هذا الشرف.

وبعد مرور عدة أعوام عندما تلا القاضي قرار الحكم بسجنه أخذها بشكل اعتيادي وكأن شيئاً لم يكن وكأنه في مدرسة والمدير يعلن نتائج الأمتحان. وعندما وصل إلى باب السجن أستقبله مسؤول الحزب في السجن.

- ماذا بكم أيها المراهقين كالفراشات تتساقطون في لهيب النار، أن أعمالكم هذه ليس بالصحيح كأنكم تطلبون من الشرطة بألقاء القبض عليكم.

هذه ليست فلسفتنا الأنسان أثمن رأسمال ولكن أنتم رتمون هذه الثروة في النار.

ما كان يهزر به المسؤول لم يعيره أي أهمية وكأنه يكلم الجدار.

* * *

صوت جرس الباب أيقظه من حلمه وأتجه نحو الباب الشاب الوسيم، جيرانه يحمل العديد من الكتب التي أستعارها، فرح كثيراً لأنه سيطلب كتباً أخرى.

أرتسمت أبتسامة على محيا الأستاذ وقال:

كم كانت ممتعة قرأت كلها هيا هيا خذ كتب أخرى لكي تقرأها.

سلو يا أبن الملعون إذا تخليلت عن هذه الأفكار هناك آخرون يديمونها تعال وأنظر كم هو فرح بالكتب.

هل يحترق طائر القنقنس في النار؟ وهل يجف النهر؟ وهل تبقى الفلسفة بلا عشاق ومريدين.

هيا أدخل المكتبة، هناك كتب أخرى لتقرأها:

- أنها الحياة تستمر وسيبقى لهذا الفكر والفلسفة مناصرون ومؤيدون.

- جيد يا شفان قرأت كل هذه الكتب بهذه السرعة يبدو أنك قارئ جيد هذا الولد يشعر بالخجل بقى صامتاً ولم يتكلم وأخيراً قال:

تريد الصدق والحقيقة لم أفتهم منها شيئاً كل كتاب قرأته كان يجلب لي الصداع ولم أفهم ما يقال.

كان يريد أن يقول له أنت من جيل فاشستي الأفكار وعبيد الفكر القومي أنتم غثاء الرأسمالية والوجودية، منذ زمن أنا قد تبرأت منكم.

لأن مرحلة التعصب القومي مرحلة متخلفة في تاريخ الإنسانية لأنها لا تستطيع مواكبة الحياة ولدت وهي ميتة الاحزاب القومية مثل كربيع الصحارى تدركها الصيف مسرعاً ولكن لم ينطق بكلمة كذا وأحتفظ لنفسه وقال له بهدوء:

- يا ولدي أنت لا تفهم هذه الكتب أنا عمك سأزودك بكتب أخرى حتى تفهمها.

وأجابه بتعثلم قائلاً:

- أستاذ كتبك كلها متشابهة، أنت وحدك تفهمها.

وخرج مسرعاً.

- وداعاً وشكراً.

أذهب أيها الأخرس إذا كان بمستطاعك أن تتكلم جملة صحيحة ماذا كنت تفعل؟

أن سه عو ومه عو قد أفسدا عقله.

وبعدها نظر إلى مكتبته كتاب بعد كتاب، هذا الكتاب قرأتها قبل عشرين عاماً وقد أشرت إلى عشرات الجمل.

هذه قبل أكثر من عشرين عاماً كنت أشرحها ومن كان يجاريني في شرحها وتفصيل بها كان العديد من الأعضاء يلفتون حولي وكانت أنظارهم علي حتى قال العم قاسم مرة:

- ما هذا هؤلاء الشباب يلتمون عليك وكأنك الامام الشافعي حفظك الله. الذي تعمله لو كنت تعمل لدينك لدخلت الجنة بدون سؤال وجواب.

واليوم شفان الأخرس لم يبق لدي دقائق ليسمع كلامي.

هذه هي العقدة بالامس كانوا يجتمعون حولك مثل النحل واليوم يهربون منك.

ضرب يديه على رأسه مرتين وقال هل السياسة والفلسفة كموديل السيارات؟ السيارة الجديدة تبز السيارة القديمة.

الكتاب الكبير ذو الحجم الضخم عندما كان في معيتك عندما كنت مع البيشمركة في تلك القرى التي لم ير أهلها سيارة، كثير من في العمر كانوا يظنون بأنك ملا وقد اكملت العلوم الأثنا عشر- ومشهود بتدينك لأنك لا تخفل القرآن.

عندما قال أحدهم مرة.

- حدثنا وأذكر لنا بعض أحاديث الرسول أو القصة التي تروي في المولود أو قصة صعود النبي إلى السماء.

- ياه... أيها المعلم ماذا تريد وماذا يقولون البعد بينك كبعد السماء عن الأرض لو تحدثه الآن وحتى الصباح وربي لا يفهم منك كلمة واحدة وكأنك تطرق على حديد بارد.

يبدو بأنه ليس هو هذا الحقل الذي تود أن تلقي بذورك فيه، سترى الكثير مثلما ما قاله لك أحد كوادر الأحزاب القومية.

أنك تحتاج إلى عشرين عاماً حتى تعرف ماهي الرأسمالية وعشرة أخرى حتى تعرف ماهي الأشتراكية وبعد عشرين عاماً أخرى تنورهم بفلسفة الحزب وكم من السنوات تحتاجها حتى يؤمنون بها.

ولسانه السليط كافي لأن يدافع عن نفسه:

- أنتم كالفاكهة عندما تنضج تسقط على الأرض أما الفلسفة الديالكتيكية ستستمر في ديمومتها كان له من الكفاية عندما يتحدث عن الدول الاشتراكية خلال سنواته الدراسية فيها ويتجاهل العشرات من الأخطاء التي يراها ويتحدث عن التقدم والثقافة عندما نظر إلى الساعة وجد أن عقاربها تجاوزت منتصف الليل.

قال له سه عو مرة أيها المعلم العالم في تغير هل باستطاعتك أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء أو توقف الأيام والليالي نحن أبناء عصرنا.

في زمن ما كانت البنت تعلم أمها، كفى يا أولاد الحرام حسناً سه عو أصبح علّي فيلسوفاً ما بقى إلا أن يضمني إلى مدرسته ويلقي علي محاضراته. وكأنه ترك الحزب وأنضم إلى حزب آخر ليعطي أضافة على أيديولوجيا وجاءت عبر قناعه واشراقات كشف عن جديد نعم أنه (روجيه كاردوي) يا أبن ألحرام كم مرة كنت تقول هذا الفقر يقتلنا ويحرمنا من جميع ملذات الحياة إلى متى نبقى على هذا الحال، لم يبق من العمر الشيء الكثير.

سوف نموت ولا نملك عجلتي سيارة.

اليوم أصبح له سيارة راقية وحماية ترافقه ومراجعته يتم عبر سكرتير كأنه مدير شركة (I.P.C) لا ينقصه سوى بايب ليدخن.

* * *

نعم أيها المعلم إذا كانت الفلسفة علم فأنها لم تنجح في التطبيق كيف نرد على الجمهور في يومها عرفت أن سه عو قد أنحرف عن الطريق وكانت تلك البداية.

فقلت يا سه عو أخشى أن يكون سؤالك مثل قصة الرجل الذي أراد أن يأكل لحم الحمار فقال أن أذانه تشبه أذان الأرنب.

سه عو أيها الخنزير كان يعرف ماذا يكون جوابه ولكي أعد كلاماً موزوناً قال:

نعم أيها المعلم هذا تهرب من الأجابة قبل أكثر من ثمانية عشر- عاماً عندما كنا نحاور الاسلاميين كان جوابهم الله أعلم.

كنت تقول هذه هي نهاية الحوار ليس لديهم أجابة واليوم تقول سه عو أنت أنسان قلق وحركي لا نستطيع السيطرة عليه.

سه عو يسبب لي الصداع من كثرة أسئلته وعنيد في مجادلته.

* * *

وبعدها قام يمعن النظر في الكتب ويتخطى في المكتبة.

صحيح أنه مثل حارس مرقد ولي قد أنتقل إلى دار الآخرة قبل أكثر من مائتي عام والناس يتبركون ويستخيثون به وهو لا يسمع لأحد منهم.

وهو كذلك يؤذن بالناس ولكن لا أحد يصلي وراءه هذا حوار الطرشان إلى متى يتواصل؟ ليس هناك طلب على ما يعرضه للناس من بضاعة وأفكار قضيت كل عمرك في هذا الطريق وهل ينفع ندمك الآن؟؟

ماذا تعني وماذا تقول

مثلما يقول المثل الأمريكي

أبدأ الوقت ليس متأخراً

بداية هذا الطريق عندما قصدت حي الميسورين وإلى يومنا هذا في أشد الأيام عصيبة كان لك أحساس بالنصر والتحدي.

واحد وأربعون عاماً بأيامها ولياليها سخرت نفسك لتلك المبادئ والدفاع عنها بكل حماس وأخلاص.

وهل اليوم مثل تاجر عاد مع قافلته بعد أيام وسنوات طوال قضاها في رحلة تجارية، جلس يعد ما كسبه وماخسره يشطب

ويضيف عن أرباحه وخسائره هذا جائز في التجارة ولكن ميدان النضال الأمر مختلف وهذا غير وارد لأن النضال السياسي ليس تجارة.

مئات المناضلين الذي تربوا على يديه دع أمثال سه عو وسلو ولكن أنت علمتهم مزاولة العمل السياسي وأيقاظهم بالوعي الوطني والطبقي.

الآف الندوات واللقاءات التي كنت تنظمها شملت مدن وقرى كردستانية عديدة، وأنشأت أناساً عديدين لتنظيمهم في ميادين النضال وصفوف البيشمركة.

إذا كان عصر الانترنت والتواصل الاجتماعي لست المذنب وهم لا يعيروني بل يعبرون عصرهم لم نستطيع مجاراتهم.

عندما يعد ذلك ويمر شريط الأيام أمام عينه وبسرعة يتغير الصور والمواقف.

كان يستطيع قراءة هذا الصور وكأنها مقالات ليدافع بها عن ماضيه ويعيد كلمات الاستاذ سربست الذي كان إنساناً مثقفاً وقارئاً نهماً للفلسفة طاف العالم وأخيراً استقر في أوروبا قال له مرة:

- أستاذ عندك نقص واحد أقوله أمامك أنت لا تريد أن تفهم بأن العالم قد تغير ومستمر في التغير ما كان ملائماً في

الماضي ليس بالضرورة أن يكون مقبولاً في يومنا هذا لكنك ضربت المائدة بكل قوة وقلت:

حبيبي ليالي أوروبا الملونة أفقدتك المبادئ وتغيرت.

* * *

تمدد على السرير وقال إلى أن تشرق الشمس غداً من يبقى ومن يرحل، حبيب النجار أم السلطان القهار.

عالم السياسة غير آمن ويتغير، فلندع الأيام تجاوب على كل أسئلتنا وضع رأسه على المخدة وقال:

- آخ آخ

المتمرد

قصة: أنور محمد طاهر

ترجمة: ماجد الحيدر

لم يدر كيف وجد نفسه يوما وهو يسلك الطريق الى المقر، ذلك المقر الذي كان، في أغلب الأوقات، مكتظا بالناس في الداخل والخارج، بل وفي الشارع المقابل له في أيام المناسبات.

في واحدة من تلك المناسبات اندس وسط جمهرة من الأطفال والمراهقين ممن يشاركهم ميلهم الى الاحتفالات والأفراح وقد تجمعوا أمام بوابة كبيرة ليصغوا الى أشخاص يرددون شعارات النصر والحرية ويهتفون:

- يعيش.. يعيش.

وثمة رجل مهاب وسيم فارع الطول يقف خلف المايكروفون ليلقي خطاباً على الجمهور المحتشد ويردد كلمات وعبارات لم يكن يفقه إلا النزر اليسير من معانيها. وكان الجمهور يقابله بالتصفيق فيرفع صوته بأقصى ما يستطيع ويبتسم حينا ويرسم على وجهه ملامح الحزن والتجهم حينا.

لكن أكثر ما أثار دهشته واهتمامه هو هذه الفصاحة والقدرة التي يمتلكها في التفنن في كلامه وإلقائه، وكيف ينجح في دفع الناس الى شد أنظارهم الى فمه واجتذاب مشاعرهم وأحاسيسهم

واستقباله بالتصفيق الحار، وما هذا الذي يقوله وما تتحدث به يداه وشفتاه وكفاه وعيناه وحاجباه!

لقد عزم، منذ ذلك اليوم، على أن يصبح مثله: عارفا بالأمور وقادرا على دفع الآخرين الى الإصغاء الى حديثه.

عندما توقفوا أمام البوابة تساءل قائلا:

- لمن هذا البيت؟ كم هو عالٍ وكبير!

فأجابه (أحمد عَيشي)

- أيها المغفل. ألم أقل لك إنه بيت الشعب؟

- الشعب؟ وما هو الشعب؟

- كيف لي أن أُخرج هذا الحمار من هذا الوحل! أعني أنه ملك للجميع، هل فهمت؟ ما زلت صغيرا يا ولد فكف عن تساؤلاتك وتتبعك لكل شاردة وواردة تسمعها!

إضطر للسكوت بينما واصل الخطيب حديثه من خلف المايكروفون والناس تصغي اليه وتثبت أنظارها على شفتيه. أحس برغبة شديدة في السؤال عمن يكون، لكنه تخوف من أن يردعه أحمد عيشي من جديد ويقول له:

- توقف عن إلقاء الأسئلة!

وكان على يقين بانه سيقول:

- أية حماقة ارتكبناها بجلب هذا معنا!

ولهذا آثر السكوت على مضض بينما كان صوت الخطيب يـزداد علوا وهو يهتف:

- يجب أن نوصل مطالبنا الى العالم بأسره كي يعرفوا باننـا نتطلـع، مثل كل الشعوب الأخرى، الى العيش أحرارا.

لم يكن ليفهم أكثر من ثلاث أو أربع من كل عشر كلمات يقولها الخطيب، أما البقية فكانت ألغازا لا يعـرف حلهـا. أخـذ أفـراد مـن المتجمعـين يصـعد عـلى أكتـاف أصـدقائه ليهتـف بـبعض الكلـمات والجمل التي ينهيها بصيحة:

- يعيش.. يعيش!

بينما كانت عبارات أخرى تنتهي بهتاف آخر:

- يسقط.. يسقط!

من يومهـا صـارت تلـك الكلـمات والمصـطلحات السياسـية غـير المفهومـة: الشـعب، الأمـة، مطالـب الجماهـير..الـخ تـدور في رأسـه كالدوامة دون أن يفلح في فهمها وإدراك معانيها.

بعد أسابيع قال لـه أحمـد عَيشيءُ صـديقه الـذي يكـبره بعـدة أعوام:

- هلم معي الى مقر الحزب. سـوف نشـكل فريقـا رياضـيا وآخـر للموسيقى.

ومضوا في اليوم الأول وفي يد أحدهم كـرة قـدم ليتـدربوا عليهـا في ساحة المدرسة ودأبو عـلى ذلـك مـرتين أو ثلاثـا في الأسـبوع. وفي إحـدى المـرات ألقـى أحـد الشـباب عـلى مسـامعهم حفنـة مـن

الشعارات والنصائح لكن أيا من المستمعين المساكين (رحم الله آباءهم) لم يفقه منها حرفا واحدا حتى انبرى أحد طلاب المرحلة النهائية قائلا:

- ما هذا الذي تقول؟ هؤلاء الذين تتحدث اليهم ما زال نصفهم أحداث وأطفال تفوح من أفواهم رائحة الحليب وها أنت تخوض بهم غمار الفلسفة والتاريخ. ما الذي سيفهموه بالله عليك؟! يجدر بك أن تغير أسلوبك وطريقتك.

لكن كلام الفتى لم يرق له، فلم يروه من يومها.

غير أن السنوات اللاحقة شهدت تحولا وانفتاحا ملموسين في نمط تفكيره.

* * *

ومرت الأيام والأعوام، وعندما بلغوا المرحلة المتوسطة حظوا بأستاذ يلقي عليهم الدروس بطريقة مجببة ووجه بسام وصوت هادئ حنون. إن له أسلوبا مختلفا لم يحد عنه، ولم يحدث مثلا أن حمل معه العصا الى الصف. وحين يدخل عليهم ويحييهم تحية الصباح ويخاطبهم قائلا: أيها الطلبة الشطار، كان كل واحد منهم ينفخ صدره ويشعر بأنه المعني بالحديث، ذلك الحديث الذي يواصله:

- طلبتي الأحبة. درسنا اليوم سهل ولطيف، فاسمعوني جيدا.

ثم يشرع في إلقاء الأسئلة ويفسح مجال المشاركة للجميع.ويشيع حالة تثير فضول الطلبة وتجذب اهتمامهم، حتى

غدا درسه أحب الدروس اليهم خلال الاسبوع برمّته. وكان عندما يتلقى الاجابة الصحيحة على أحد أسئلته يبادر التلميذ مستحسنا:

سلمتَ أيها التلميذ النجيب. صفقوا لزميلكم!

أما إذا كانت إجابة التلميذ خاطئة فإنه يكتفي بالقول:

- حسنا، لقد اقتربتَ من الجواب.

أو يقول له:

- غدا سأعيد عليك السؤال نفسه.

في أحد الأيام دخل عليهم وقد بان السرور على محياه، ثم حياهم وقال:

- سنبدأ اليوم بتكلمة الدرس السابق وحل بعض أسئلته وبعدها سنتحدث في موضوع شديد الأهمية لنرى مقدار ما تعرفونه عن تاريخكم.

وأخرج لهم صورة كبيرة من ظرف كان يحمله وقال:

- من منكم يا أحبائي يعرف صاحب هذه الصورة؟

تمعن الجميع فيها دون أن يتعرف عليه أحد.

- انظروا مليا (أعاد عليهم) تمعنوا فيها. لا يجوز لنا أن نخطئ في موضوع مهم كهذا.

عندها انبرى أحدهم قائلاً:

- هذا جارنا. بيته يقابل بيتنا!

فضحك الاستاذ لكن ملامحه تكدرت قليلا. ثم هتف أحد التلاميذ وكان والده موظفا حكوميا:

- أستاذ. لدينا في البيت صورة تشبه هذه.
- حسنا، وما اسمه؟
- والدي يعرف ذلك.

صدم الأستاذ من هذه الاجابة وتعكرت أساريره لكنه لم يفقد الأمل فأخرج صورة ثانية:

- طيب. ومن هذا؟

رفع الجميع أيديهم فتبسم وقد حسبها بداية جيدة ثم سأل أحدهم:

- نعم. أجبني أنت. من هذا؟
- إنه جندي!

نظر اليه الاستاذ في استياء، ثم انبرى تلميذ ثان:

- إنه شرطي!

عندها لم يتمالك المعلم نفسه فضرب الأرض بقدمه وصاح بصوت غاضب:

- لا.. لا.. كفى!

واستغرق في تفكير عميق وخيالات بعيدة، ثم هز رأسه متفكرا:

- ما ذنب هؤلاء الأحداث إن لم يعرفوا شيئا عن تاريخهم؟ لقد حرموا هم وأسرهم بالطبع من أية فرصة للاطلاع على ماضيهم

والتعرف على رموز كفاح شعبهم (ثم هز رأسه ثانية كمن يحادث نفسه) أي حمل ثقيل وقع على عاتقنا وعاتقهم! أي ظلم فادح يقع عليك عندما لا تعرف شيئا عن ماضيك وتبتعد عن تاريخك! إنك لن تجد تحت موضع قدميك سوى أرضا رخوة لن تستطيع التقدم فوقها.

وظل صامتا لا يعرف ما يفعل. تُرى هل يفقد الأمل ويستسلم للأقدار والأحداث ويترك الأمر للزمن وتقلباته؟

لقد سمرته الأفكار في مكانه مثل من نزلت عليه صخرة دفنت آماله وتطلعاته.

- ما الذي ستغيره؟ هب أنك خاطبت عشرة أو عشرين، فهل ستحدث التغيير الذي تنشده.

وأستغرق في أفكاره وقد شعر بالانكسار والخلان. ثم رفع رأسه ونظر الى تلاميذه. كانوا حائرين مندهشين وهم يتساءلون عما أصاب معلمهم. وقرأ على وجوههم ما يدور في رؤوسهم من أسئلة وأفكار، ثم أحس بالذنب إن هو تركهم على هذه الحال فلربما صار بعضهم أولئك الرجال الذين رسمهم في خياله. ثم أعترته رجفة وأفاق من خياله وقال مع نفسه:

- كلا، لا ينبغي أن يثبط الأمر من عزيمتي. علي أن أواصل دعمي لهذا النضال ولتوعية هذا الشعب، وشبابه على الخصوص فهم الجيل الجديد الذي سينزل ميدان العمل ومعترك الكفاح.

* * *

لم يغمض له جفن من فرط السرور ليلة أخبره بأنه سيقوم، هـو وزميله، بتوزيع جريدة الحزب، وظل ينتظر الصباح بصبر نافذ.

حمل كل منهما رزمة من الجرائد ثم كرر المسؤول الذي كلفهما بالمهمة تحذيرهما وهـو يرفـع سبّابته مهـددا وقـد ارتسـمت عـلى وجهه علامات الجد الشديد:

- انتبها لنفسيكما واذا سألكم أحد عـما في الشـوال قـولا لـه انهـا ثياب. وإياكما أن تذكرا اسم الجريدة.

كانت الجريدة تصدر علانية في العاصمة لكنها، رغم ذلك، توزع سرا في هذه المدينة.

- هل فهمتم ما قلت؟

- نعم، نعم (أجاب الاثنان معا)

- اذهبا إذن أيها النبيهين. كونا حذرين وعودا الى هنا حـال اتمـام المهمة.

وحـدث ذات مـرة أن فاضـت لديـه نسـخة مـن الجريـدة لأن الشخص الذي يفترض تسليمها اليه لم يكـن في منزلـه ولم يخـرج لـه أحد رغم طرقه المتواصـل عـلى البـاب، فاضـطر الى حملهـا معـه الى البيت، وهناك بدأ في تصفحها فلم يجـد فـيما قـرأه ورآه مـن صـور أمرا مشوقا يجلب انتباهه. ثمة اعلانـات وصـور لشخصـيات عالميـة لكن أيا منها لم يثر فضوله، لكن صفحة واحدة تتحـدث عـن تـاريخ الكورد وقعت تحـت ناظريـه فقرأهـا مـرتين وثـلاث مضطرا الى أن

يشرح لنفسه بعض الكلمات التي استعصت عليه مستعينا بمعارفه القليلة.

وانقضى عام وبضعة أشهر، وتغيرت أحوال المدينة، فانتشر الخوف وراح عملاء الحكومة يراقبون الناس في صلافة وشرعت بعض المراكز القمعية بالعمل وتضاعف أفراد الشرطة من غير الكورد وازداد عدد الجواسيس والمخبرين.

القي القبض على بعض الشخصيات المعروفة واودعوا السجون بينما لاذ آخرون بالقرى والجبال والوديان وانتشرت الأخبار بأن شرطة الحكومة تتعقبهم وتبحث عنهم.

وذات يوم ناداه الرجل المسؤول عن توزيع الجريدة وقال له:

- خذ هذا الحجاب الى بيت (حكيم علي). إن أمه مريضة. لقد اضطرب عقلها فجلبناه لها من عند (صوفي عمر)

ثم شده من أذنه محذرا:

- احترس. إياك أن تعطيه لكائن من كان بل سلمه ليده شخصيا، واحذر أن تفتحه وتقرأ ما فيه فقد خط فيه صوفي عمر أسماء ملوك الجان وسوف يصيبك الجنون بمجرد وقوع نظرك عليها !

وأعاد عليه من جديد:

- لا تخرجه من جيبك ولا تدع أحدا يراه، ولا تتسكع هنا وهناك. إن عدت سريعا سأعطيك حلوى لذيذة. هيا ياشاطر، هلمّ يا بطل!

دار رأسه ولفته الحيرة والذهول. ترى كيف للجن أن يدخلوا الى تميمة !؟ وأصابه الرعب من فكرة أن يفتحها فتنطلق خارجة منها وتصيبه هو الآخر بالجنون، فاستطاع بالكاد أن يعرف طريقه. ولكن ما أكبر تلك التميمة! لقد حدث ذات مرة أن صنعت جارتهم (أم حمو) تميمة تطرد الجن عن ابنها لكنها كانت صغيرة بحيث علقتها على صدره، لكن لماذا تبدو هذه التميمة كبيرة جدا؟ وخطر له أن أم حكيم علي لا بد أن تكون كبيرة، ولهذا صنعوا لها تميمة بهذا الحجم!

بعد أعوام، وعندما انخرط في هذا الميدان، صار يضحك كلما تذكر ذلك الموقف ويقول في سره:

- أيها الساذج الغشيم. لم تكن تعرف بأن تلك "التميمة" كانت بريد الحزب. لو أبصرك يومها واحد من جواسيس الحكومة لطرحوك أرضا وأشبعوك ضربا على قدميك.

يبدو أن الحياة والنضال لا بد أن يستمرا. فها هو بعد أعوام طوال يرى تلك المرأة عند حاجز تفتيش للبيشمركة. كانت امرأة شجاعة مكتهلة فارعة الطول. أخذت تخرج أوراق البريد من محزمها ومن تحت ثيابها. قليل من الرجال من يجرؤ على فعل هذا! نعم إن الحياة لا تتوقف أبدا، أما من يتغير فهو الانسان فحسب. ان من يقدم على عمل كهذا هو واحد من اثنين: ساذج لا يعرف عواقب فعله أو إنسان عامر بالايمان والتضحية، مثل فراشة تلقي نفسها في النار.

هذه هي الحياة، وهكذا تتقدم المجتمعات وتقطع المراحل. أما هو فقد آمن بأن حركة الشعوب كما الانهار: لا تسأل أحدا عن طريقها. إنها تشق مجراها بنفسها. وهكذا تسلم الشعوب راية كفاحها مثل أمانة يسلمها كل جيل الى ما يليه.

الكثير ممن سقطوا في فخاخ السلطة وظلوا على قيد الحياة كانوا يروون للآخرين حكاياتهم وتفاصيل العذابات التي قاسوها على ايدي الظالمين فيحيلها الناس الى أساطير ويؤلف منها أصحاب الأقلام أجناسا من الأدب، أشعارا وقصصا وروايات وتراجيديات. هذا هو مصدر وعي الشعوب المقهورة المحتلة. نبع لا ينضب من تلك الحكايات الحافلة بالتضحية والفداء.

* * *

مضت عدة أعوام، ووجد نفسه في المكان الذي طالما حلم به. لم يكن مثلما رسمه في خيالاته وأحلامه لكنه أصر على أن يتكيف وإياه مهما كان الحال. كل ثورات العالم مرت بظروف مشابهة، فوضى وأخطاء وكبوات. لكن القائمين بها ما انفكوا يرددون بأنها لن تبقى هكذا ولا بد أن يجدوا لها الحلول.

غير أن أعواما أخرى مرت صار يشعر معها بشئ يزلزل الأرض تحت قدميه. وأحس بأنه وسط بواكير عاصفة هوجاء تتوضح معالمها يوم بعد يوم. ها هو الانشقاق يتسلل الى صفوف الشعب ويزداد عمقا يوما بعد يوم. لقد أدرك بأن الأمر لن يمر مرور الكرام وأن ثمة نار تتقد تحت الرماد. ماذا حدث لهؤلاء الذين طالما وقفوا

معا في خندق واحد مدافعين عن أرض وطنهم مشرعين صدورهم للرصاص والنار والطائرات، متقاسمين الرغيف، مؤثرين رفاقهم على أنفسهم في تناول الكسرة الأكبر، ماذا حدث كي يتحولوا الى أعداء ألداء؟

عندما كان يكاشف رفاقه بأفكاره هذه كانوا يجيبون:

- ماذا نفعل؟ هي نار شبت بيننا وأمسكت بتلابيبنا. كيف ننجو منها؟ هل نقف على الحياد ولا ننحاز لطرف دون آخر؟ لكننا سنقع في النهاية في حفرة ما! هل نفر من الميدان؟ أينما ولينا وجوهنا سنقع في أحضان عدو ما، أبيضا كان أم أحمر!

ألم تسمع ما قاله ذلك الاستاذ الجامعي:

- السياسة شأن قذر. على المثقف أن ينأى بنفسه عنها ولا يفسح المجال لكي تدنو من الثقافة والأدب.

كان الشق يتسع يوما بعد يوم حتى غدا التقارب والتفاهم أمرا مستحيلا عسير المنال. وعندما كاشف واحدا من رفاقه بما يدور في خلده من آراء وأفكار (وكان يختلف معه بشدة، في هذا الأمر على الخصوص) أجابه صاحبه:

- ما تدعو له من وقوفك على الحياد أمر عسير يكاد يكون مثل سيرك على الصراط! ما تقوله لا وجود له الا في خيالك واحلامك. انه يعني انسحابنا من الميدان وذهاب كل نضالنا وحراكنا أدراج والعودة بخفي حنين.

* * *

في تلك الليلة انتشرت أخبار كريهة، وخيل لهم أن الدنيا لفها ضباب كثيف، رغم أن الوقت لم يكن وقت ضباب. غرق الجميع في جو من التشاؤم المرير وأنهال كل طرف على الطرف الثاني بالسباب وبالشتائم. سأله صديقه:

- هل سمعت ما قاله؟
- نعم (أجابه وهو يهز رأسه)

ولم تمض سويعات حتى استلم برقية لاسلكية تفيد بوقوع مصادمات خفيفة بين الفريقين أسفرت عن جريح واحد.

إذن فقد وقع المحظور وما كنا نخشاه وندعو ألا يحصل. أدرك أنها بداية لمرحلة طويلة لا مداها يعلم الا الله وأن تلك النار التي أشعلوها بأيديهم لن يكونوا قادرين على اطفائها، وأن الكثير من الحاقدين وأعداء الشعب سوف يصبون عليها الزيت وينتفعون منها ويرقصون لها طرباً.

أما الذين تتأجج مشاعرهم ويفورون بسرعة البرق فقد كان اليوم يومهم فراحوا يهتفون بأنهم سيبيدون الطرف الآخر عن بكرة أبيه. لكن شيخا حكيما هز رأسه ومسد لحيته وعلق قائلا:

- أيها الشباب أسمعوا قول عجوز فانٍ رجله والقبر. لقد بُذرتْ بذره الشقاق وسوف تنبت وتنمو فلا تأملوا لها زوالاً!

تحرّق الجميع لمعرفة مصدر تلك البرقية وهم بين مصدق ومكذب، أما هو فقد صار كالتائه وسط زوبعة ثلجية. لقد أصبحتْ شغلهم الشاغل ومدار جدالهم وخصامهم حول أحقية هذا وخطل

ذاك! واستحال الأمر الى داء وبيل ووباء انتشر بينهم كالنار في الهشيم. لقد وقع عليهم خبر البرقية مثل وابل من الثلج في عز الشتاء، ورأوا أصنامهم محطمة كسيرة. أما (علي بهار) فقد ردد من جديد:

- اليوم فقط انقصم ظهرنا!

* * *

ثم وجد نفسه يوما وهو سجين لا يعرف تهمته. من جاء به الى هنا؟ كيف جيء به ولماذا؟ كل ما فعله هو أنه أراد كأنسان أن يقف ضد ما يجري أمامه.

ذات مرة خاطبه رجل متقدم في السن قائلا:

- أنت شخص عنيد متقلب لا يقر قرارك. ماذا دهاك؟ كن مطيعا مثلنا ولا تدسّ أنفك في كل شيء.

لكنه استثقل هذا الكلام، رغم إدراكه بأنه يقوله لمصلحته، فنظر اليه في اشمئزاز وقال في نفسه:

- وهل تحسبني صنما كي أظل صامتا وأنا أرى كل ما يحدث وأشهد هذه النيران تلتهم بيتنا؟ كيف لنا أن نسكت وكأننا عميان لا نرى شيئا؟

إنه ليتذكر نفسه عندما سخر من أقوال مفكر أجنبي ويضع خطوطا تحت كلماته التي يقرؤها، تلك الكلمات التي تؤكد "إن الأحزاب وجماهيرها مثل قطيع من الأغنام تسير خلف راعيها" كان

يومها يقول إن هؤلاء الأشخاص أناس جبناء مهزومون لا يجرؤون على الوقوفي بوجه التيار.

يبدو أن السياسة تشبه تذرية الحنطة والحبوب، يجب أن تكون باتجاه الريح لا عكسه. إن الراعي ليسوق أغنامه الى المرعى بالصفير ونداءات الزجر والاستدراج. هكذا هو الأمر، دخول الحمام ليس كالخروج منه. وأنت تعرف هذا جيدا. عندما تنتمي لحزب ما فإنك تضع لجامك في يده. إنه ليس مقهى تدخله وتغادره ساعة تشاء. كل من زاره يفتح معه الموضوع ويزيد ويعيد وينهال عليه بعشرات المواعظ. أما (عُزير حسين) فقال له بصريح العبارة:

- يا ابن أخي. لم يضرب القدامى جزافا ذلك المثل القائل (طول اللسان يورث الأحزان)

لم يطيب أحد خاطره. كلهم انتقدوه وأكدوا بأن كل هذا ماكان ليحدث له لولا طول لسانه.

لقد كان يحمل همومكم حين قال:

- إننا على شفا هاوية سحيقة إن وقعنا فيها نهوي نحو الفناء، وإن وقفنا على أرجلنا سنعود الى نقطة البداية.

- نعم. إنها ضريبة الأحلام والخيالات وما حشوت في رأسك من الكتب. الأحلام شيء والواقع شيء آخر. هل تسعى الى تغيير عادات وطبائع الشعب التي جُبل عليها منذ مئات السنين؟ استيقظ يا صاحبي من أحلامك.

عندما حققوا معه كان يجيبهم بهدوء ورباطة جأش وهم يمطرونه بوابل من الأسئلة عمن يتصل بهم، عن درجاتهم ومراتبهم، عما يقولون، عن مراميهم في خلق هذه الفوضى..

- من يعطيك التعليمات ومن أصدقاؤك؟

وعندما أجابهم بأنه يستمد أفكاره ويتلقى أوامره "منه" أجفلوا ثلاثتهم واتسعت أحداقهم وفغروا أفواههم وسألوا في صوت واحد:

- حسنا. من هو؟

وهزوا رؤوسهم كأنهم يقولون:

- لقد كنا نعرف. إنه هو لا غير!

وقال واحد منهم:

- كنا نعرف بأنك على صلة به. لكن كيف وعن أي طريق؟ فنحن نعرف بأنك لم تغادر هذا المكان.

- إحم إحم. حسنا. وكيف عرفتم؟ أنا بعيد عنه بمسافة ثلاثة أيام أو أربعة فكيف أتصل به؟ هل تحسبونني طائرا لأطير نحوه؟!

ظلوا صامتين ينظر واحدهم بوجه الآخر، وسأله رجل ثان:

- كيف لك إذن أن تتلقى توجيهاته وأوامره؟

أجابهم وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة:

- لأنه قريب جدا!

- وكيف هذا؟ صاح الثلاثة معا فأجابهم في ثقة وهدوء:

- لا تقلقوا ولا تذهب بكم الظنون. إنني أتلقى الأوامر من هذا الذي في رأسي. أطيع العقل والمنطق. أنني أسألكم: هذه النار التي تؤججونها وتزيدونها ضراما، أهي في مصلحة الشعب؟ أجيبوا أنتم!

لم ينبس واحد منهم ببنت شفة

- أنتم أيضا على يقين بأنه عمل خاطئ وخراب للبيوت. لكنكم لا تجرؤون على قول الحقيقة!

أحمو الشرطي

قصة: أنور محمد طاهر

ترجمة: ماجد الحيدر

كان عجوزاً طاعناً في السن. تقرأ من هيئته وسيمائه أنه يعيش أواخر خريفه. رأسه ولحيته اشتعلا شيباً وصارا بلون الجبن القديم. يده اليابسة تقبض على عصاه وهو يلهث كمن يتسلق جبل هلكورد. توقف ليسترد أنفاسه، تلفت يمنة ويسرة ثم خطا بضع خطوت وهو يجرجر قدمه اليسرى المتأخرة. توقف ثانية متطلعاً الى من يمد له يد العون ويساعده على عبور الشارع.يبدو أن أحداً لم يره، أو أن أحداً لم يعره اهتماماً، لكن عناده ورأسه اليابس كانا يمنعانه من التخلي عن كبريائه وطلب العون.

ها هو اليوم ينعم النظرَ الى وجهه. لم يكن قد فعل ذلك من قبل، فلم يكن (لا هو ولا أقرانه) ممن يملكون الجرأة قبل هذا على النظر في هذا الوجه.

إنه (أحمو الشرطي)، ذاك الذي كان فيما مضى يبدو، وقد التفَ بقيافته الكاملة وشد النطاق والإبزيم، مثل حصان السائس: عصاه في يده كأنها هراوة حربية، يسير في شوارع المدينة مختالا فينأى عنه الناس مسافة عشرة أمتر لئلا يقعوا فريسة غضبه—والويلكل الويل لمن يقع في طريقه!

في ذلك الوقت كان أطفال حيّهم يدب فيهم الهلع بمجرد رؤية أذني أحمو الشرطي، فيلوذون بالفرار الى أقرب جحر ويستخفون وراء الجدران أو في الأزقة الفرعية حتى يمر؛ فهم يعرفون جيداً أحمو الشرطي ورعب عصاه: لقد هوى بها ذات مرة على كاهل (علّو بن سافا) فعرف من رأى أثار الضربات أيَّ ظالم أثيم هذا الرجل الذي ليس في قلبه ذرة من رحمة. أقسمت (سافا) أم (علو) بأنها واصلت وضع ضمادات الدهن والعجين على موضع الضربات كي تخفف أورامه طوال عشرة أيام ظل فيها اليتيم البريء يلقى الأمرين كي يسحب أنفاسه. أما الأم المسكينة فكانت ترفع يديها مائة مرة كل يوم وتدعو:

- أما من قادرٍ على قهرِ هذا المفتري؟ ألا فلينتقم الله لهذا اليتيم المحروم من الأب!

وصار أحمو الشرطي منذ ذلك اليوم مصدر رعبه المقيم، فظل (حتى بلغ مبلغ الرجال) يتراءى له كلما أبصر شرطيا، وصار كل رجال الشرطة صورة مستنسخة منه.

حفرأحمو الشرطي اسمه وصورته في أعماق عقول أطفال المدينة، وأطفال حينا على وجه الخصوص، وصار في ناظرهم ذئباً جائعا، كلبا مسعورا يجوب أزقة المدينة وينهش الرائح والغادي. وعندما يدور الحديث على (علّو بن سافا) كانوا يتساءلون: إذا كان قد أحاله بضربتين فقط الى نصف انسان، وأرغم والدته على

السهرفوق رأسه ثلاثة أيام بلياليها، فما الذي كان ليحصل لو جعلها ثلاث ضربات أو أربع؟!

شيئا فشيئاً أحال أطفال المدينة وأهلها تلكم العصا الى اسطورة تلوكها الأفواه، فيقولون مثلا أن سليمان النجار أفرغ جوفها ثم أخذها الى هرمز الحداد الذي صب فيها الرصاص المصهور فلم تعد مجرد عصا بل هراوة موت: من نزلت عليه ظل معلقا بين الله وعزرائيل، فيبقى على قيد الحياة أو يحل ضيفاً على المقبرة! أما (حوبو) المعروف بمغامراته وألاعيبه فكان يقول:

- آه لو رأيتُ أحمو الشرطي نائماً وسرقتها منه!

لكنهم يجيبونه:

- هو لا ينام إلا وتلك العصا تحت رأسه.

بعد أعوام وأعوام أرسل له واحد من أصدقاء طفولته ممن هاجروا الى أوربا رسالة يقول فيها:

- هذي البلاد فيها شرطة أيضا. لكنهم ليسوا أبداً مثل أحمو؛ إنهم انسانيون للغاية.

* * *

حلَّ الخريف وصارت المدينة تعج بالقرويين والفلاحين والمزارعين ونواطير الكروم. وعندما يحل أوان رفع الأجواخ التي فرشوها لتجفيف الأعناب والفواكه كان القرويون يقصدون المدينة كي يبيعوا منتجاتهم ويسددوا ديون العام المنصرم. ولم يكن الأمر ليكتمل إلا إذا عادوا لقراهم حاملين شيئاً من الحلوى وأخبار

المدينة وأقاويلها استعداداً لقدوم أهل القرية لزيارته لغرضالتسامر والسؤال.

المحتلون يسحبون قواتهم ويعيدون انتشارها هنا وهناك. وفي معسكرات الحكومة تعلو هتافات النصر ـ والقضاء على الثورة الكردية ومحاصرة من كانوا يسمونهم بشراذم العصاة المارقين في أعالي الجبال والذين سيهزمون بدورهم عما قريب. سراي الحكومة والثكنة العسكرية (القشلة) يقعان في مجمع واحد هو أكبر بنايات المدينة. وأفراد الشرطة، يقفون عند البوابة ، كما في كل يوم، واسلحتهم في أيديهم متأهبين، أو يتظاهرون أمام ضباطهم، بالتأهب لأي حادث.

أمام القشلة والسراي، وعلى مبعدة عشرين أو ثلاثين متراً، يقع مقهى "جسيم". بناية المقهى شبه بفابريكة أوربية من القرن السادس أو السابع عشر: لبنات من الطين صُفَّت بعضها فوق بعض وجدران من الصفائح المعدنية وعلب الصفيح تُغلَقُ بعض جوانبها في الشتاء بالزجاج لتعود وترفع في الصيف. أما السطح فمغطى بالتوتياء. وعندما يرتفع دخان المدافئ والسجائر في الشتاء يبدو المكان حقا مثل فابريكة قديمة.

فوق رأس صاحب المقهى ثمة صورتان معلقتان لا غير: أولاهما بائعة التبن، بجدائها المنسرحة وعينيها الفاتنتين، التي يحوك كل من رآها قصته عنها دون أن يعرف أحدٌ على وجه الدقة أياً منها الصحيح. أما الثانية فهي صورة رئيس الدولة. إطارها هو هو دون

تغيير، لكن الصورة التي يحيط بها تتبدل كلما نجح انقلاب عسكري في بغداد. كلما صعد ملك أو رئيس جديد ذهب "جسيم" ليشتري أرخص صورة له ثم يفك الزجاج عن الإطار في حذر وترتسم على وجهه ابتسامة احتفالية ويردد ساخراً:

- إذا حضر الجديد، أُهديَ القديمُ!

لكنه يعلم أن كلامه لا يرضي بعضهم فيتنفس بعمق ثم يضيف:

- تُرى من الذي سيأتي بعده؟

فإذا أراد أحدهم أن يجرّ الحديث الى التعريض بالحكومة وسأله:

- ومن سيأتي بعده يا عم جسيم؟

أحس على الفور أنه يريد بسؤاله أن يورطه بإجابة تكسر الرقبة فيسارع الى تخليص نفسه متراجعاً:

- يا عمّو، كل من يتزوج أمي أناديه عمي!

هذا المقهى يصير في الأصياف شيئاً آخر، إذ لا يتحمل أحد البقاء تحت سقف التوتياء الساخن هذا، فينتقل الجميع الى مساحة خالية من الأرض الى الجوار تظللها بعض أشجار التوت ويخرجون مقاعد الجلوس التي لم تكن غير المقاعد الشتوية عينها: بعض التخوت الخشبية والحصائر.

* * *

هذا المقهى هو الموضع الأثير لتجمع العاطلين والكسالى فتراهم يعودون بعد الظهر الى احتلال أماكنهم فوق تخوتها وحصيراتها

القاسية. أما الذين مكثوا في بساتينهم وكرومهم وسواقيهم منذ الصباح حتى العصر فيأتون ليستريحوا قليلا ويسمعوا أخبار المدينة واقاويلها.

أصبح المقهى واحداً من معالم المدينة وقطعة من فولكلورها، فقد كان، علاوة على قِدَمه، يتمتع بميزة أخرى هي قربه، بل مواجهته، للقشلة وسراي الحكومة؛ فلم يكن يزورها وزير أو مسؤول أو شخصية مهمة من الجنوب أو شيخ عشيرة أو آغا إلا ويصطادونه بنظراتهم، حتى صار أشبه بمرصد نموذجي لمن يسعى لتصيّد الأخبار. صحيح أنهم لا يعرفون كل ما يدور ويقال في تلك الغرف المسدلة الستائر، لكنهم يسارعون الى شرح كل شيء وتحليل أبعاده كما لو كانوا يشمون ظاهر يدهم! أماإذا كان الزائر كاسباً أو شخصاً عادياً فسوف يدركون من فورهم أنه لم يدخل إلا لإصدارِ بطاقة هوية أو خدمة عسكرية. ولكن إذا كان الزائر واحداً من جِراء النظام وجواسيسه فسيعرفون بأنه لم يأتِ إلا لكي يؤذي شخصاً سيء الحظ أو يكسر رقبة مسكين أو ضعيفٍ ما على أمل أن يرموا اليه ببضعة دنانير.

ومن الطبيعي أيضاً أن زيارة أحد الأغوات أو رؤساء العشائر يمكن أن تحمل بضع تفسيرات: أما إنه دخل السراي ليظهر ولاءه وإخلاصه لأحد موظفي الحكومة، وفي هذه الحالة لا بد أن يمهد لقدومه ببعض الهدايا التي يرسلها الى بيته، وليستغل الفرصة أيضا

لنقل بعض الشائعات والأقاويل؛ أو إنه قادم كي يتعاون في رمي شِباكه لصيد سمين لا يمكن لأحدهما أن يظفر به بمفرده.

أهل المدينة لم يكونوا كلهم على هذه الشاكلة طبعاً، فممارسو هذه الأفعال كانوا يعدون على أصابع اليد.

الذين جعلوا من ذلك المرصد مكانهم المفضل كانوا يتمتعون بهذه المهارات، وصاروا بمرور الأيام أخصائيين فيها، فكان الجميع، من الأشخاص العاديين الى الأحزاب، يستفيدون منهم ويأخذون أراءهم بعين الاعتبار، لكنهم بدورهم ما كانوا ليبيعوا بضاعتهم لكل من هبّ ودب.

* * *

ما زال العصر في أوله. لكنه لم يكن ليمر كعصر غيره من الأيام. فقد انطلقت على حين غرة منبهات السيارات وأصوات عربات الاسعاف العسكرية التي تخطف كالبرق. في تلك الأمسية ابتعد الناس عن الشوارع وهم يرددون: يا ساتر استر!. لكنهم أخذوا يتهامسون فيما بينهم فقدبلغهم أن معركة بطولية تدور رحاها، معركة أوقعت خسائر فادحة في صفوف الجيش المحتل.

(صوفي عزيز) أقدم روّاد المقهى المزمنين فرش حصيرته على العشب، إذ لم يكن يحب الجلوس على المقاعد. وما أن اتخذ مكانه عليها حتى تناهى الى سمعه صياح طيرٍ فرفع رأسه ورأى من خلف نظارتيه غراباً جاثماً على شجرة التوت. بصق على الأرض ثلاثاً وذكر

اسم الله والانبياء عشر مرات ثـم هـز رأسـه، فقـد أحـس بـأن هـذا المشهد نذير شؤم، رغم أنه لم يسمع بعد باندلاع المعركة.

تلك المعركة وما أوقعتـه مـن خسـائر بالعسـكر صـارت تاريخـاً يؤرخ به الناس ولادة أطفالهم. وبعد أعـوام وأعـوام ستصـبح سـجلا لحياتهم حتى أن أحدهم إذا أراد أن يتفاخر على الآخرين مـا عليـه إلا أن يقول:

- لقد كنت واحداً من البيشمركة المشاركين في معركة الكَلي.

ولكفاه حمله هوية كهذه كي يصفه الناس بالشجاعة والشهامة.

كانت المعركـة فخـا محكـما وقعـت فيـه قـوات العـدو دون ان تدرك بأنها قد حوصرت بين فكي كماشة فصارت هـدفاً للنـيران مـن كل صوب، فدبّ فيها الخوف والاضطراب وصار من يفر منهم نجاة من النار بإزاء نار أخـرى تفـتح أشـداقها. وعنـدما عجـزت سـيارات الاسعاف عن رفع كل الجثـث لم يعـد أمـامهم غـير أن يحملوهـا في أحواض سيارات الحمل كي يصفّوها أمام بوابة القشلة، فتقاطر أهـل المدينة للتفرج عليها.

أصبحت المعركة وما واكبها من أحـداث علامـة تاريخيـة فارقـة وحديثا يتناقله الناس بعد سـنوات طـوال، وصـار كـل مـن شـهدها يرويها بطريقته الخاصة، غير أنهم أجمعوا على كونه يوما لا ينسىـ وحين يـروون تلـك الأحـداث كـان لا بـد علـيهم أن يتمـوا روايـتهم بالحديث عن معركة الكلي. ليس مهما أيهما يروى قبـل الآخـر فقـد

كانا مرتبطين معا ولا يمكن الحديث عن كل منهما بمفرده وإلا لن تكتمل البانوراما ذات الوجهين.

أما أحمو الشرطي فقد استحال الى جمرة متقدة، بغلٍ مجنون أو كلب مسعور يعض من يقف في طريقه. وأخذ يذهب ويجيء وهو يهز مؤخرته ويرسل فحيحا كفحيح الأفاعي باحثاً عن أدنى عذر ليطفئ ناره المستعرة.

عندما أبصر ضباط القشلة وجنودها وشرطيوها أولئك الناس وهم يتفرجون على الجثث، دون أن يُظهِروا أية علامة على الفرح والتشفي، أحسوا بمرارة الهزيمة والانكسار وبأن الجماهير لن تعود تخشاهم وأدركوا أن هذا الوضع سيتفاقم يوماً بعد يوم. وتناجوا فيما بينهم: حسناً، هذه الجموع البريئة التي تحت أيدينا لم تفعل شيئاً. من أقدم على هذه الفعلة معروفون ومواضعهم معلومة أيضاً. كانوا يتهامسون بهذا دون أن يجرؤوا على رفع أصواتهم وخصوصاً عندما علم الضباط أن أمراً ما يجري تدبيره. أما الناس فقد عرفوا أن ثأراً قد أخذ، فصاروا يهزون رؤوسهم قائلين:

- كبير هو الله. لا يترك ما لهذي اليد لليد الأخرى.

وتشاور الضباط ورجال الشرطة من جديد. وحين أبصروا تلك الجموع هجموا عليهم مثل ثيران المصارعة واقدموا نحوهم مدججين بالبنادق والعصي ونزلوا فيهم ضرباً بالعصي والأعقاب. تفرق الجمع هاربين لكنهم أوغلوا في خبثهم فما أن يتوقف أحد أو

يسقط أرضاً حتى يشبعوه ضرباً. أصحاب الطاقيات واليشماغات التقطوها وأطلقوا سيقانهم للريح والرجلُ من يخلّصُ نفسه.

أما أحمو الشرطي فقد كان لسان حاله يقول: اليومَ جننتُ، اليوم أنا نارُ غضب. وأخذ يهوي على الناس ذات اليمين وذات الشمال. ولم يكن رجال الشرطة الآخرين بأقل منه قسوة، فقد استحالوا جميعاً الى كلابٍ مسعورة تنهش الناس وتنقض عليهم مثل سربٍ من ذئاب يقتحم قطيع أغنام.

وارتفع صرير أبواب الدكاكين المعدنية وهي تنزل على عجل. أما الذين لم يسعفهم الوقت لإقفالها فقد تركوها مشرعة بما تحتويه. وخلال عشرين دقيقة أو أقل أقفرت المدينة تماماً كخرائب ينعق فيها البوم، وكنت ترى عشرات الطاقيات واليشماغات الانكليزية الصنع وهي تنتشر في السواقي.

أحمو الشرطي وأمثاله نالوا الثناء من رؤسائهم لكن أحداً منهم لم يحصل على فلسٍ أو عانة. وأضحى ذلك اليوم ورقة ذات وجهين في تاريخ المدينة: الأولى معركة الكلي التي لا بد أن تتبع لدى روايتها بالحادثة الثانية. وهكذا يمتزج الحزن بالفرح، لكن شعور الظفر كان هو الطاغي لأن الصفحة الأولى حملت معاني الرجولة أما الثانية فقد وقع فيها الابرياء والمدنيون فريسة للظلم والطغيان.

ظلت الحادثة بعد أعوام طوال مادة للأحاديث، خصوصاً في حضور أشخاصٍ من مدن أخرى يفخرون أمامهم بتلكم الصفحة. في أغلب الأحيان كان اثنان منهما يتوليان الرواية: لا بد أن يكون

أولهم أحد مقاتلي البيشمركة المشاركين في تلك المعركة. فإذا ما فرغ من روايته طلبوا من الثاني (ولا بد أن يكون من رواد مقهي جسيم) أن يقص عليهم ما حدث في المدينة أمام عينيه. عندها تجتمع الروايتان وترسمان صورة حية لما حدث. لكنهمكثيرا ما استعانوا لكل واحدة منهما بشاهدي عيان لإضفاء المزيد من المصداقية لدى المستمعين. نعم، كانت الصفحتان كلاهما شارة فخر وظفر لأبناء المدينة.

* * *

كان أحمو الشرطي عفريتاً ينتاب ليالي طفولتنا وكابوساً يطير النوم من عيوننا. في كل يوم، ومثل صلاة يستقبلون بها الصباح، يسأل آباؤهم، ويرددون هم بدورهم في الأزقة وبين الرفاق الصغار:

- متى؟ كيف؟ يرفع الله عنا بلاء هذا الظالم؟

لم يكونوا بحاجة الى ذكر اسمه؛ فالجميع يعرفون أن المعني بالحديث هو أحمو الشرطي لا غير.

في كل بضعة أشهر تنتشر شائعة جديدة بأن أحمو الشرطي قد أمر نقله الى جنوب البلاد. فكانتتسري كما النار في الهشيم وينقلها الحاضر للغائب. ولأنهم كانوا فرحين بها تراهم يسارعون الى تصديقها وتضخيمها:

- لم ينقل فقط، بل أنقصوا واحداً من الخيوط التي على ذراعه.

مضت أيام ثلاثة دون أن يراه أحد، لا في القشلة ولا في الشارع؛ فكانت تلك فرصة ممتازة لانتشار الإشاعة. لم يتطرق الشك الى أحدهم بصحتها، كانوا فرحين بها فلم يترددوا في تصديقها:

- وضعوا كتاب نقله بيده وشيعوه ببصقتين في وجهه وركلة في مؤخرته وقالوا له اذهب دون رجعة يا كلب يا ابن الكلب!

أطفال منطقة السوق كانوا الأكثر سروراً. صار الشارع بغيابه أكثر عرضاً، وتلك الساحة التي يلعبون فيها كرة القدم غدت في ناظرهم ملعباً أولمبيا فسيحاً.. صارت الدنيا شيئاً آخر.. صار لها طعم جديد.

غير أنها حرية وسعادة يخالطهما الخوف؛ لأنهم لم يتوقفوا عن التفكير في ظهوره لهم من جديد بسدارته والعصا التي في يده. كان حلمهم أغنيةً قصيرة، ربيعاً صحراويا لم يطل أمده. فجأة برز أحمو الشرطي مثل جني. والذين كانوا يرددون قبل وهلة قائلين:

- نعم. لقد ولّى ولن نرى أثراً لابن الكلب ذاك!

عادوا كي يقولوا بعد أن شاهدوه:

- لم أكن أصدق. كنت أعرف أنها واحده من خدع نغل البغال وألاعيبه!

ثم يهزون رؤوسهم ويضيفون:

- طبعا، فمن يكون؟ وابن من هو؟ إن كانت له أم واحدة ومائة أب فماذا تتوقعون؟ إنه هذا الذي ترون!

وقال واحد ممن يرتدون بدلة وربطة عنق:

- هذا القذر رمز لطغيان النظام. من أين لهم أن يأتوا بمثله؟ كلا لن يبدلوه إلا إذا عثروا عن من هو أحقر منه.

يومها لم نكن نفقه معاني تلك المصطلحات أو الربط بينها لنفهم ما يقولون، لكنك أدركت أن أحمو الشرطي حطّ على المدينة مثل بوم خراب، مثل خيمة شؤم، مثل غيمة غضب أطاحت بكل سعادة وهناء.

رؤيته لوحدها كانت مجلَبة للسأم والانزعاج لدى أطفال المدينة ومراهقيها، لكن تلك العقدة أخذت تنحل يوماً بعد ويزداد المشهد وضوحاً أمام ناظريهم.

غداأحمو الشرطي أكثر سعارا، وكأن أخبار احتفال أطفال منطقة السوق قد بلغت مسامعه، فصار يغدو ويروح في غضبٍ وكرهٍ عظيمين. أما أطفال المنطقة فكانوا أشد يأساً وانكساراً، وتبخرت تلكم الأحلام اللذيذة كما ينحسر الضباب أمام الشمس. لم يبق من قول يطيب خاطرهم ولم يرغبوا هم أيضاً في تناقل الأسوأ؛ ولهذا التزم الجميع الصمت وهم ينظرون في عيون بعضهم البعض وصاروا، كلما دنوا من الشارع، يتطلعون الى الساحة المقابلة للسراي كي يتأكدوا من أنه أحمو الشرطي بشحمه ولحمه. كانوا يختلسون النظر اليه مرة ومرتين وثلاثا:

- إحم.. نعم إنه هو!

وانسدلت خيمة الخوف والكآبة فوق هاماتهم، وكبّوا على وجوههم من الحزن والغم.

قبل أذان المغرب تفرق أطفال الحي، فقد سرت الأقاويل بأن أحمو الشرطي قد بلغته الأخبار بأن أطفال منطقة السوق كانوا الأكثر سروراً من بين أهل المدينة بنقله منها. وقيل أن أحمو الشرطي حين نقل اليه هذا الحديث جزّ على أسنانه وطبطب بعصاه على سرواله وأقسم أن ينتقم منهم شرّ انتقام.

كان يبحث عن مبرر كي يشبهم ضرباً ويريهم آباهم حتى سابع جد. ليس هذا فحسب فقد زاد البعض قائلين:

- لقد أقسم أحمو الشرطي بالطلاق وبالقرآن بأن يضربهم "الفلقة" ويحرّم عليه رؤية عتبات بيوتهم.

ما قاله كان يكفي لكي ترتعد فرائصنا ونئن مثل جراء أصابها الفزع. وصرنا حين نقفل الى بيوتنا ينوء كل منا بحصته من الغم والخوف الجاثم على الصدور وقد اصفر وجهه ليرمي جسده المنهَك النحيل على وسادته المتخشبة.

* * *

ها قد جاء أحمو الشرطي!

ها هو يدنو راكضاً مسرعاً وعصاه في يده.. أوّاه.. إنه قادم نحونا! ارتفع صراخ (سالي بن مِستو) :

- أفلتوا بجلودكم! سيمسك بنا!

ولكن كيف يفلتون؟ ها هو يشهر مسدسه ويصيح:

- الى أين المفر؟ سأحيلكم الى جثث هامدة!

- أوّاه.. الحقني يا أبتاه.. لقد جاء!

وينتصب على قدميه كي يلوذ بالفرار مثل أصحابه. يقف، ويحاول أن يركض، لكن رجليه مخدّرتان لا تطاوعانه، فلا يستطيع التقدم خطوة واحدة، كأنهما موثقتان بمائة كيلوغرام من الحديد. كل أصحابه الصغار لاذوا بالفرار، أنقذوا أنفسهم، إلّا هو.. لم يستطع.. كأن قدميه قد صُبّتا الى الأرض صبّاً. استجمع كل قواه كي يركض لكنه لم يتزحزح شبراً واحداً. ورفع ناظريه فأبصر أحمو الشرطي واقفاً فوق رأسه ملوّحا بعصاه وهو يهم بالانقضاض عليه.. وانطلقت من أعماقه صرخةٌ مدوّية..

هبّت أمه من نومها على صرخته.

- ما بك يا فدتكَ أملك؟ الحقوني.. هلموا إلي.. لقد أصاب ولدي مسٌ من الجن!

واستيقظ الجيران النائمون فوق السطوح على هذا الصريخ وهم يتساءلون إن كان عقرباً ما قد لدغه. وأجابت أمه من خلال الدموع:

- اذكر اسم الله يا ولدي. اقرأوا على رأسه آية الكرسي!
- أشهد أن... تشَهّد يا ولدي!

وفتح عينيه أخيراً. ورأى أمه وأباه وأخوته.

- أماه.. إنه هو..
- من يا ولدي؟

- آهٍ يا أمي. أقسم بالله أن المسَّ الذي أصابنا منـه لأكـبر وأعظـم! ما العمل؟ أي رمادٍ نذروه على رؤوسنا؟!

- أسكتي يا بُنيّة.. لا تزيديه جنونا. دعيني أتلو عـلى رأسـه بعـض الآيات.

أما هو فقد تنفس الصعداء. اختفى شبح أحمو الشرطي.. كـان مجرد حلم!

لم نكن نجرؤ في النهار على الاقتراب من السوق والشـارع خوفـاً منه. ولم نكن في الليل بمنجاة منه؛ كان ينتاب أحلامنـا ويجـثم عـلى قلوبنا مثل كابوسٍ ثقيل.

* * *

كان أخوه الكبير بمثابـة أبٍ وراعٍ لهـم ولـه محـل احـترام خـاص لديه فهو قدوته في الخلق الرفيع وحسن التصرف، ولهذا أحبـه مـن كل قلبه. في أحد الأيام هرع أحمد الشرطي اليـه مثـل مـن يبحـث عن ضحية ما، وصاح به في غلظةٍ وجفاء:

- لماذا لم تغلق دكانك بعد؟

منع التجوال كان سيبدأ بعد ساعة كاملة، لكـن أحمـو الشرطي أراد أن يثأر لنفسه من ذلك اليوم حين أخبره أخوه حسـين بـأنهم لا يبيعـون بالـدين والتقسـيط. توقـدت عينـاه في محجـريهما وغمـره إحساس بالخزي والصغار فظل واجماً في مكانه وهو يطبق بأسـنانه على شفتيه من شـدة الغـيظ. إنهـا علامـة عـلى أن أهـل المدينـة لم يعودوا يخشونه. لو تغاضى عنه اليوم فسـيحذو الآخـرين حـذوه في

الغد. لا، لن يسمح لهم بأن يحيلوه الى أضحوكةٍ ومسخرة.. سأجعله عبرةً ودرسا للآخرين كي يعلم أهل المدينة من هو أحمو الشرطي!

ربتَ بعصاه على سرواله ثم أحكم وضع سدارته على رأسه وقال:

- أنا أعرف الى أين ترسلون الشاي والسكر. أنتم شركاء العصاة!

هذه أكثر التهم خطورة لأنها إن تؤدِّ بالمتهم الى الاعدام فإنه سيبقى حبيساً بين جدران السجون الى أن يتعفن. طالما انتظر أحمو الشرطي هذا اليوم على أحر من الجمر. أسرع أخوه حسين الى لملمة دكانه وحمل بضاعته الى الداخل، لكن ابن الكلب ذاك كان قد اتخذ قراره، فهوى عليه بعصاه دون سابق انذار وبكل ما يحمل من حقدٍ وغِل بضربةٍ لو أنها وقعت على رأسه لخرّ صريعاً، ثم وقف على رأسه وصار يوجه الركلات والضربات.

- يا ابن الكلب. ألا تعرف أنه وقت منع التجوال؟ لماذا لا تغلق دكانك؟ أنا أعرف السبب: لكي يحل الظلام وترسل السكر والشاي الى العصاة.

ولم يوفر شتيمةً أو تهديداً. ورمى بعض الأخيار أنفسهم ليحولوا بينهما وبذلوا كل ما في وسعهم من نجدةٍ ووعود حتى أنقذوا أخاه حسين من بين يديه. وانحنى هو كي يلتقط حجراً فهمس له أحدهم:

- اذهب قبل أن يراك، وإلا جعل أسرتكم في خبر كان!

وأحس منـذ ذلـك اليـوم بانكسـارٍ عظـيم، وأدرك معنـى الظلـم وفداحته.

في تلك الليلة زارهم رجل مجرِّب خبر الدنيا كي يواسيهم:

- أحمو الشرطي ليس شيئاً في حد ذاته، لكن ثمـة حكومـة تسـند ظهره. إنه كلبهم المخلص الذي يطلقونه على الشعب.

كلماته تلك خففت من همومهم وأحمالهم. ومضى قائلاً:

- هل بقي في هذه المدينة من لم ينل عضّةً منه؟

وصارت تلـك النظـرة التـي طالما نظـر بهـا الى أخيـه كقـدوة في المـروءة والطيبـة والاسـتقامة مثـل زجاجـةٍ تكسرـت أمـام عينيـه وأحدثت شرخاً عميقاً في فكره وآرائه.. لِمَ يحصل هذا؟ أخذت الدنيا تضيق في ناظريه، وتمتلئ مرارةً وظلاماً.. لماذا؟ لماذا؟

* * *

أحمو الشرطي واقف على رصيف الشـارع، لا يسـتطيع العبـور، ولا يرغب أحدٌ بمساعدته. إنهم يعرفونـه تمـام المعرفـة.. وصـاح بـه أحدهم:

- ميزان الله لا يحيـد. إنـه لا يـترك مـا بيـدٍ ليـد. فليبـقَ في مكانـه وينظر.

أما هو الذي يعرف أكثر من غيره أي مجـرم لعـين هـذا الأحمـو، فأخذ ينظر بتحدٍ وإصرار في وجهـه الـذي تظهـر عينـاه بالكـاد مـن تحت شعره الأبيض. وهذه العكازة.. إنها لا تشـبه أبـداً تلـك العصـا القديمة.

لا أحد يكلمه، لا أحد يقول له (الله بـالخير) لكـن إحسـان أهـل المدينة وأفضالهم عليه بقيت على حالها. ومـا كـان ذلـك إلا إكرامـاً لبعض الأخيار وأسرهم. الأمر الذي جعل البعض يتعجـب مـن كـرم أهل المدينة حين يرحمون ذئباً سقطت أسنانه. غير أن الـبعض كـان يقول:

- أحمو الشرطي نموذج لنظامٍ مضى وولّى. فليبقَ حياً أمام الأنظار كي لا ننسى تلكم الأيام السود. بل ينبغي لنا إن مات أن نحنّطـه ونعرضه في المتحف لأن رؤيته تروي ذلك التاريخ وتظهر بجـلاء أيام القهر تلك.

عكازه في يده، يتطلع أحمو الشرطي ذات اليمـين والشـمال والى الأعلى والأسفل ولا يستطيع العبور، كما لـو أن عـلى عينيـه غشـاوة فلا يرى أحداً وهو يضرب بعكازته على أرضية الشـارع. يبـدو كمـن فقد ناظريه ولا يرى أحداً.

* * *

ذات يوم في عاصمة البلاد وفي دائرة التقاعد سأله صديقه:

- هل تعرف ذاك الرجل؟

وكما لو أراد الحط منه قال له بصوت مرتفع:

- نعم لقد كان أحد مرتزقة النظام القذرين.

كان كمن ينظر الى بناية قديمـة متداعيـة توشـك عـلى الانهيـار. نظارتاه مثل كعبي كأس شاي وفي يدي عكاز رعاة. إنه أشـبه ببطـل فيلم روسي خارج من سجن سيبيري.

نعم، إنه ذلك النتن الذي لم يعرف (حين كان يقود الهجمات على كردستان) غير سياسة واحدة، غير سبيل واحد وخطة عسكرية واحدة: الأرض المحروقة.منوجهه تشع نيران الجحيم. يعرف الجميع أن ظلمه وطغيانه لا يعادلهما غير جبنه وميله للفرار. اسمه واخباره كانا يسبقانه ويملآن مدن كردستان ويرتبطان في أذهان الناس بالخراب والقرى المحترقة.

- هو الآن مثل أحمو الشرطي، شريطان سينمائيان متعاقبان.

أخرج من جيبه محفظة نقود وأسند عكازته على الجدار. في يده حزمة من الدنانير والمحفظة في اليد الأخرى. فتح المحفظة يريد أن يضع فيها النقود لكن يده كان ترتعش. حين يمسك المحفظة بيد ترتعش اليد التي تحمل النقود ويفشل في دسها بها فيبدل ما بينهما ويحاول من جديد دون جدوى. وتكرر المشهد مرتين وثلاث: يمسك بيد فترتعش الثانية.

حين يذيع الراديو بياناً باسمه ويتوعد الناس بالويل والثبور لم يكن حتى الطير ليجرؤ على الخروج من المدينة، كان يحيل الجبال والقرى الى كتل من النار والدخان. وكلما مني بهزيمةٍ في جبهات القتال يعود لينتقم من المدنيين والمساكين ويحرق الأخضر واليابس. كان الناس يفرون من قراهم، وإذا جرؤ أحدهم على السؤال عن السبب يأتيه الجواب على وصف جارهم الحاج عمر:

- عليك يا ابن أخي أن تخشى من لا يخشى الله. نحن أدرى أي كافر معدوم ضمير هو!

ذات مرةً أبصر وهو يطوف بطائرة الهليكوبتر راعياً أمام قطيع أغنام فألقى القبض على المسكين الذي لم يكن يحمل غير عصاه وأركبه في الطائرة وقال له:

- اشتم قائد الثورة.

وعندما رفض ذلك أوثق يديه وألقاه من ذلك العلو الشاهق. ثم، وكمثل من ظفر بصيد عظيم أخذ يقص الحادثة ويعيدها بكل فخار على بعض الخونة.

* * *

أحمو الشرطي جعل من أطفال الحي أشبه بأرانب حبيسة في الأقفاص فما عاد أحد منهم يجرؤ على الخروج أو اللعب في الميدان القريب من الشارع، وصارت رؤية سدارته لوحدها كفيلة بدفعهم الى الفرار. إنه خبز كل الموائد وحديث كل الأسر والصغار. الحديث عنه لا ينتهي، يتراكم ويعلو مثل تل من الحجارة؛ يبدأ من حكاية علو بن سافا ولا ينتهي بحادثة ضرب الناس في المقهى.

أسكَتَنا (حسو بيركي) ثم ألقى بيننا حديثاً أشبه بالقنبلة، فظللنا جميعاً واجمين ينظر بعضنا في وجه بعض. بعد سنوات عديدة سترسخ لدينا القناعة بأن ما قاله يومها لم يكن من بنات أفكاره بل لا أنه سمعه ممن هو أكبر منه، فقد كان كلامه أكبر من عقولنا وأفكارنا.

لزم أطفال الحي ومعهم بعض المراهقين المدركين الصمت ولم ينبتوا ببنت شفة ولم يعرفوا ماذا يقولون وماذا يزيدون. ظلت

أفواههم فاغرة وآذانهم مشرعة. أفاض حسو علينا بمقدمة طويلة كأنه تلقنها تلقينا، ثم شرع بعرض مشروعه بصوت ناعم: خلاصته أن نتوجه جميعاً الى المسجد في ليالي رمضان بُعيد صلاة العشاء والتراويح ونجتمع في زاوية منه وندعو الله معاً أن يزيح عنا بلاء هذا الظالم. كنا، استناداً الى كلامه، سنقوم من نومنا في اليوم التالي لنسمع أنه أصبح ميتاً دون حراك!

لم تكن بنا من حاجة لذكر اسمه فنحن جميعاً نعرف من ذاك الذي أطبق على أنفاس الناس وجعل المدينة برحابتها أصغر من حبة بطمٍ خضراء، ومن بزواله تتفتح أمامنا آفاق الحياة. وسرت في أجسادنا رعشة فرحٍ ممزوجة بالخوف، وشرع حسو بتلاوة الدعاء ورحنا نردد من بعده كلمة آمين وأكفنا ترتجف خوفاً من اطلاع أحمو الشرطي على خطتنا؛ لو حدث هذا لأرانا أجدادنا حتى سابع جد.

رغم أنها سعادة ممزوجة بالخوف لكنها كانت مثل مرهم تداوت به قلوبنا. وترددت من أعماقنا آهات التلذذ، وساقتنا أحلامنا وأوهامنا الى تخيّل مشهد عزرائيل وهو يطبق الخناق على رقبة أحمو الشرطي ولا يغادره إلا وهو جثة هامدة، وكيف أن تلك الجثة ستظل في مكانها دون دفنٍ حتى تأمر الإدارة عمال البلدية بدفنها فيقومون متكاسلين كي يحفروا له حفرة يلقونه فيها كيفما اتفق ثم يهيلون عليه بعض التراب.

وبتنا ليلتنا تلك على هذا الرجاء، رجاء أن تكون تلك ليلته الأخيرة، أن يعم الفرح حيّنا، أن نلعب في تلك الشوارع والساحات في حرية ودون خوف. نمنا وحلمنا بموت هذا الظالم وفنائه ونحن نتساءل عمن سيزف الينا البشرى.

* * *

لا يعرف كيف توجه في الصباح صوب مدرسته..

وهناك، في رأس شارع القشلة.. كان أحمو الشرطي ينتصب كالوتد وهو يبرم شاربيه وكان الدنيا لا تسعه!

وأدرك من يومها أن الدعوات واللعنات لم ترتفع لأكثر من هاماتهم وأنها ليس سوى سلاح الخائفين العاجزين.

تضعنا قصة مقهى العميان للقاص انور محمد طاهر امام نوع من الايهام السردي والايهام بعوالم صراعية.. الذي يجد في العميان دلالة تفريضية ضد الأخر الغامض، الاخر الذي يصطنع من المقهى (السر المكاني) قوة توليدية لابقاء فكرة الصراع الذي يقوده القاص عبر تشظيه الى امكنة اكثر اشباعا للاوعي النكوصي واكثر تجبرا عن محمولات النسق المضمر و نسق الاشباع الحسي والديني (بعد صلاة المغرب يتفرقون، كل أثنين او ثلاثة يذهبون نحو جهة معينة، مسجد، او ماخور، او موقف بائعات الهوى الرخيصات.

الناقد : علي حسن الفواز
جريدة الزمان عدد / ٤٦٩٥
كانون الثاني / ٢٠١٣

تتشكل شخصية ديمو في قصة ديمو للقاص أنور محمد طاهر عبر شبكة من الحالات الانسانية التي يتانسن فيها الكلب و تصبح له لغة تعبير تعرفها الشخصيات الاخرى المشتملة في حقل السرد القصصي، و تتعامل معه على اساس استيعابها و تمثلها والاعتراف بها على النحو الذي تبدأ القصة فيها و تنتهي اليه في رحلة حياة و موت قاسية (...) ان المشهد الاستهلالي هنا يرسم صورة ديمو الشخصية الاجتماعية وبما يحظي من اهمية في مفاصل المكان والزمان، وبما ينطوي من حضور بالغ الخطورة في نسج البنية الاجتماعية لمجتمع القصة.

د. فاتن عبدالجبار جواد
جامعة تكريت

يعود الكاتب في قصة صيد الاسود الى اللغة المحكية الموحية والى التعمق الصحيح في اسرار النص القصصي الحديث من خلال الشخصيات الدرامية، مزجا جميلا تجعل القارئ يغادر بساطته وارتياحه.. يحاول ان يبذل جهدا في اللحاق وراء أدراك كنه القصة و فك الغاز شخوصها... الهروب و عبور النهر... هذا التداعيات استطاع الكاتب أن يوظفها توظيفا صحيحا و ينتقل بحرفية عالية تؤكد قدرته على التنقل بالفلاش باك (المنلوج) بمهنية ذكية و عالية.
قراءة نقدية في المجموعة القصصية مقهى العميان

راسم قاسم / مجلة الصوت الأخر
العدد / ٤٤٠ حزيران ٢٠١٣

في سردية القص تتناوب – منطقيا – متجهتان: الاولى تهدي الى يقينية الاحداث والثانية تؤشر شكوكية الاحداث، وما بينهما تتاكد قيمة التناص مع فلسفة (الشك يوصل الى اليقين). والفلسفة هذه عمل متنقل من العلوم المعرفية الصرف الى الادب غالبا ما تتعامد الانتربولوجيا مع العناصر الروائية... كل هذا يسهم في جعل نماذج قصص مقهى العميان خاصة (ديمو) مقامات روى للقص و هذه المقامات لها ما سبقها من تجارب توصل لها زمنيا وفنيا كل لوحة تحتوي على اطار خارجي ووسط (عمق، و وحدة الفكرة عامة) ثم هي اللوحات كلها تضيء اللون، حتى لو كان شعاعا مفردا لا غير.

لئلا يجئ العميان/ اسماعيل ابراهيم عبد
جريدة التآخي / نشرت المقالات تباعا
٢٠١٦ /٢٠ اكتوبر